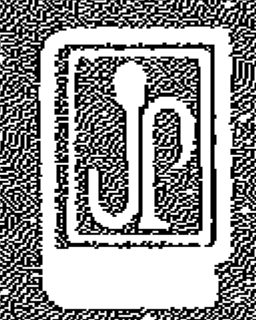
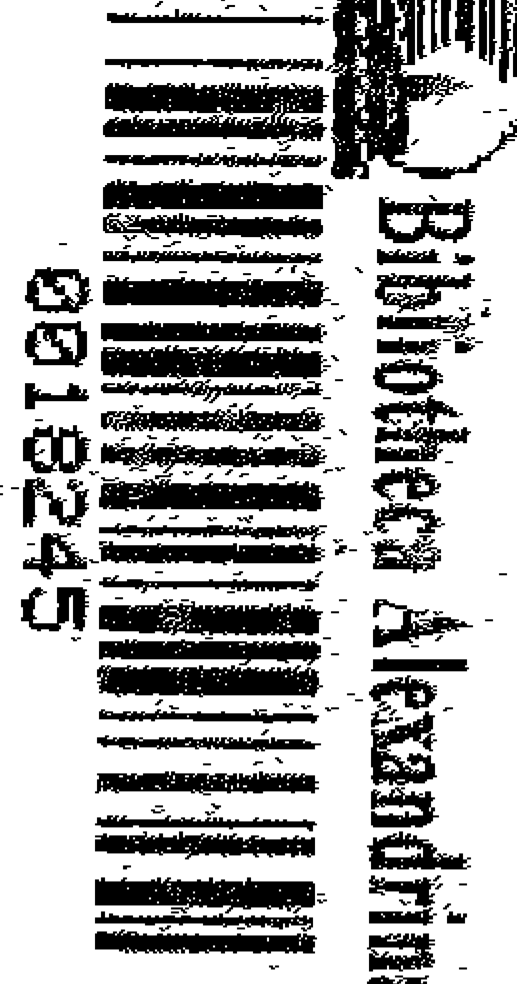
التوراة ... وداروين

بحث فلسفي عقلاني
في نشوء الكون وتكون الحضارات

المؤلف
سعد معتوق





جروس برس

التوراة ... وداروين

التوراة ... وداروين

بحث فلسفي عقلاني في نشوء الكون وتكوّن الحضارات

المؤلف

سعد معتوق



جروس برس

طرابلس - لبنان

الطبعة الأولى

١٩٨٨

الحقائق العلمية والتاريخية

لقد قيل قديماً: « إن من يعرف الحقيقة يجب ان يهيّأ له حصان لكي يستطيع أن يهرب ».. ذاك كان في ما مضى من العصور حتى القريبة منها.

وذاك كان.. في ما يعود الى الحقائق العلمية، حيث كان الجهلة المدّعون بالعلم ــ بعد ضياع العلم الصحيح ــ يعتقدون بأن ما يملكونه من غبار المعرفة المفقودة هو شيء منزل من السماء وملقَّن من الآلهة. وبالاتفاق مع الجهلة المتألهين القابضين على ذمام الحكم في شعوب منكوبة ومعذَّبة وعاجزة عن توفير لقمة عيشها بغير طريقة التسكّع على ابواب الأقوياء، كان هؤلاء الجهلة بالقلم والأبرياء من معرفة الحقائق يأمرون بحرق كل من يعرف الحقيقة، بقصد تغطية جهالتهم وغباوتهم وللحؤول دون تعكير الأجواء الفكرية حول امراء وحكام مستبدين، يسيطرون على شعوب تعيسة وجهولة ولا يعرفون أن يلقّنوها العلم والمعرفة: العلم لكي تستنير؛ والمعرفة لكي تتعايش بلا عنف ولا تتذابح.

وهكذا اليوم.. فيما يختصّ بالحقائق السياسية: لأن السياسيين المهيمنين هيمنة مطلقة على معظم أمم الأرض، المشوِّهين لمنظر

الحضارات بشعارات وُضعت لخدمة مصلحة زُمَر معيَنَة من العقائديين الكاذبين لا يسمحون بان تُعلن حقيقة حول سياسة الحكم الحكيم العادل الانساني وبان تندّد برذائلهم وفساد طرائقهم في حكم الشعوب الطالبة العيش بسلام.

اما الحقائق العلمية فقد « قزّمت » المدّعين وحجّمت المتفلسفين وشققت الحُجُب بقوة البيان والاكتشافات والإبداع والأحلام المنطلقة نحو الكون الواسع والآفاق التي لا تطالها خيالات العاديين الترابيين.

ان الحقائق العلمية، وتضاف اليها الحقائق التاريخية، جعلت من المستبدين ــ مثاليين كانوا ام مادّيّين ــ مخلوقات صغيرة تخجل من نفسها، لأن العلم قد دفن غطرستها وفضح جهالتها امام الشمس والكون.

فالحقائق التاريخية خرجت من تحت انقاض الحضارات المندثرة لتحكي روايات صحيحة كانت صامتة تحت التراب ولم تألف سماعها البشريات العائشة اليوم.

وعلى اساس هذه الحقائق حاول العلماء، وأحاول أنا بدوري، تحطيم اساطير كثيرة وإعادة تفسير اساطير اكثر، معطياً لها معناها المنطقي التاريخي الاصحّ.

ثم ان التغيرات التي حدثت في المجتمعات البشرية كان الباعث الباطني عليها اقتباس عقلاني شخصي يعبَّر عنه بهذه الكلمة: الرجل اولاً، والمجتمع بالتالي. الرجل او المرأة: اي الانسان ككائن يعيش لكيانه الانساني والوجودي. وقد حاول المستبدون ــ سواء كان الجنس رجلاً أو مرأة ــ ان يعكسوا هذا الأمر الهام، فكانت هناك الثورات والانقلابات التي جاءت

بعقائد وتعاليم كثيرة تعود كلها الى اعتقاد الانسان كإنسان بافضليته في الوجود وبان المجتمعات وُجدت لخدمة الانسان ولمصلحته.

واذا كان لكل عصر تقلباته الفكرية والفنية والحضارية ــ وهي حطام خاص بالعصر دون سواه ــ فان المنطق، ميزان الصواب في الوجود، هو مقياس واحد وكوني ودائم لكل عصور التاريخ.

الحقائق العلمية والتاريخية في المواضيع التالية:

- البداية
- التكوين
- الله الخالق.. او الآلهة المبدعة؟
- العمالقة مؤسسو الحضارات
- زواج الآلهة مع بنات الناس
- المرأة تحكم المجتمعات وتروّض الخيل وتستخدم الرجال
- الكهنة يسوسون الشعوب ويستعبدونها باسم الآلهة
- تنازع الحكم بين الرجل والمرأة
- ماذا يعني صراع الثور؟ ماذا يعني التطهير؟
- نحن البشريات الحاضرة..
- نهاية الحضارات القائمة
- هل هناك عودة الى حكم الإلٰهة الأم؟

الكتب القديمة.. والتوراة

بعض الكتب القديمة قالت: « في البدء خُلِقت الآلهة ». أي ان الألوهية الكونية التي نحجّمها بتصورنا إلٰه معيَّن، أوجدت الآلهة التي اناطت بها تنظيم الكون.

اما التوراة العبرانية، وبكثير من الخلط بين الأحداث التي لا يستطيع اي عقل ان يدركها او أي نور فكري ان يصل الى ابعادها المكانية والزمانية، اكّدت ان الله خلق السماء والأرض واشاع النور، فاصلاً اياه عن الظلمة، مسمّياً النور نهاراً والظلمة ليلاً.. في اليوم الأول (اي في المرحلة التكوينية الاولى).

وان الله رتَّب الجَلَد (أي السماوات)، فاصلاً المياه العليا، أي البخارات المائية المتكونة في الجوّ، عن المياه السفلى المترسبة على أديم الأرض.. في اليوم الثاني (اي في المرحلة التكوينية الثانية).

وان الله نظم المياه السفلى، جامعاً اياها في احواض كبرى وفي كتلات معينة، فأتاح هذا التجميع ظهور الأرض اليابسة؛ ومسمّياً المياه بحاراً واليابسة ارضاً. وعند تكوين اليابسة أنبت

الله فيها الأعشاب والأشجار والنباتات.. في اليوم الثالث (اي في المرحلة التكوينية الثالثة).

وان الله نسّق الجَلَد في عملية لفصل الليل عن النهار، بان « رصّع السماء بالمشاعل (اي النيِّرات) لتضيء السماء، من جهة؛ ولتكون هذه النيّرات علامات لفصل العقود عن السنوات والأيام، ولإنارة الأرض.. وبينها النيّران الكبيران الشمس والقمر: الأول ليتحكم بالنهار والآخر لينير ظلمات الليل.. في اليوم الرابع (أي في المرحلة التكوينية الرابعة).

« وان الله أوجد الأسماك ليملأ بها البحار، والطيور لكي لا يظل جو الأرض فارغاً ولتطير في الهواء الطليق، كما أوجد الزواحف العملاقة في الأنهار والبحار.. وبارك الجميع قائلاً للجميع: تناسلوا وتكاثروا في الجوّ والبحار.. في اليوم الخامس (اي في المرحلة التكوينية الخامسة).

« وان الله برأ جميع الحيوانات، على مختلف اجناسها. جميع الكائنات الحية من زواحف ومواشي وحيوانات مفترسة، كبيرها وصغيرها.. ووضع في كل جنس وكل فرد نظاماً بيولوجياً خاصًّا بالتوالد والتناسل.. ثم قال الله: « والآن لنصنع الانسان على صورتنا ومثالنا. ولنجعله يهيمن على جميع مخلوقاتنا في الأرض.. وخلق الله الانسان رجلاً وامرأة، اي ذكراً وانثى، وبارك هذا الخلق ».. في اليوم السادس (اي في المرحلة التكوينية السادسة والأخيرة).

أسس التكوين
الكائنات العاقلة في الكون

ذاك ما قالته التوراة العبرية التي تبناها الاقوام المسيحيون في العالم واعتمدها اصحاب دراسات الإلهيات (اللاهوتيون) وأخذ بها المسلمون كتعليم موحى من الله، منزل من السماء. لقد تبنوا هذه الرواية كعقيدة روحانية، « علمية » ومعصومة عن الخطأ.. وبذلك وضعوا بداية للكون دينية لا تستطيع الدراسات العقلانية مفتوحة امام التصورات الكثيرة والأفكار الكثيرة وحب المعرفة الكثير تجاوزها أو تجاهلها اي الفلسفة البحاثة التي لا تقف عند حدود، بل ان حدودها البعيدة وراء الأرض والسماء تمتدّ على اقاصي الكون السحيقة غير الواقعة تحت ادراك المخلوق الإنساني الأرضي. فهذا الإنسان لم يكن ليتمكن من ادراك شيء من اسرار الوجود لو ظلّ مخلوقاً طبيعياً دون التعديل العقلاني الذي ادخلته الى كيانه آلهة الأزمان الغابرة. وان هذا الكيان معجون بعناصر الطبيعة وخاضع لنواميسها وقيودها. وتدخل الآلهة جعل منه كياناً مميزاً عقلانياً يرفع انظاره عن أديم الأرض ليمدّه على الآفاق الفضائية البعيدة.

وفي طريق بحثي الموضوعي ألتقط نظرية شارل داروين واحملها معي لآخذ منها فكرة التحوّل الذي طرأ على المخلوق « القردي » الأرضي، فصار عقلانياً واختلف مصيره عن مصير « أبناء عمه » قردة الأدغال. واترك ما تبقّى من نظرية التطور؛ لأن العلم البيولوجي فتّتها، فتناثرت غباراً ضائعاً في تاريخ التخيّلات المتبخّرة، تؤذي العلم لو ظلّ ملتصقاً بها وتوقف سير المعرفة لو ظلت متقيدة بها.

فللتكوين أسس وثوابت ونواميس ترسّى عليها كل جسم، كل جنس، كل عنصر، كل حركة وكل دور في الوجود بل كل دورة من دورات التحوُّل والتبدُّل والتجدُّد.

فالعنصر البشري الأرضي ليس سوى شعبة من العنصر العقلاني المنتشر في مناطق مختلفة وقصية في هذا الكون الذي لا يُحدّ.. أي أنه تجسيد ارضي صغير للطاقة العقلانية الكونية التي ترعى نظام الأكوان والوجود الكلي.

ولقد جهل شارل داروين ومعه ـــ وقبله وبعده ـــ الكثيرون من المدّعين بالمعرفة والمدعين بالانزالات والخياليين المتصورين للأمور مجاناً ان هذا الكون، الهائل في عظمته ولاحدوديته، تتحكم فيه طاقات كونية وجودية جبارة هي جوهر الكون وحركة حركاته ووجود وجوده: الطاقات الكهربائية والمغناطيسية والتجاذبية والتجانسية والتحافظية والتفاعلية والبيولوجية. وجميعها تتحكم بها طاقة الطاقات، اي العقلانية، عين الوجود الساهرة ونبضه الدائم المرتب لكل من الطاقات قواعدها وطبيعة عملها لكي تقوم كلٌّ منها بدورها الخاصّ في حركة الكون الكلية ووجوده المدرك.

لقد جهل العقائديون ان الكواكب والنجوم لا تصل الى احصائها ارقام البشر.. وان المجرّات يشعشع في انهارها الفضية ملايين الشموس والأنظمة الشمسية والأبراج وانظمة التجاذب والتفاعل والتهديم واعادة التكوين.. وان كل مجرّة جزء من اجزاء كون لا نهاية له.. وان عدد هذه المجرات قد يبلغ الملايين.

لقد جهل الكثيرون من العلماء أن الأرض عصافة في نهر مجرّة واحدة معروفة وان مصيرها تقرّر يوم وُلدتْ او يوم أُعيد

ترتيبها لكي تصبح صالحة ـــ ولمّا تزال غير صالحة كلياً ـــ لاحتضان الدور البيولوجي بمختلف اشكاله والوانه واهدافه.

عناصر من التوراة وعناصر من نظرية داروين

وأريد هنا أن أحذو حذو العقاقيري الذي يجمع بين عناصر مختلفة بكميات علمية ليخرج منها دواءً واحداً قابلاً للإشفاء.. اريد أن آخذ من نظرية داروين عنصر التحوّل الحيواني الى عقلاني؛ ومن قصة آدم وحواء اللذين صيغا بقالب العقلانية؛ ومن كلام التوراة العبرية عن زواج الآلهة من بنات الناس.. الشيء الذي « لم يرضِ الله » لأن فيه « بندقة » أي تحويل نوع وجنس بيولوجي من الأَنواعِ الأرضية عن مساره المرسوم. سواءً كان قصد الآلهة تعديلاً بيولوجياً علمياً للحصول على أصلح (وهذا هو الأصحّ) او لاحداث تجربة علمية قلبت نظاماً بيولوجياً في جنس البشر رأساً على عقب. ان الله قد علم ونحن ايضاً ندرك اليوم، ان التجربة قد اعطت هذا الإنسان الأرضي المعذب الذي خرج بعقله وفكره عن حيوانية القرود، دون ان يحصل على مزايا الآلهة الذين أعادوا تكوينه وصنعه على مثالهم.

مقارنة منطقية

ان التقليد، نوع من النسخ، يفترض اصولاً يحاول المقلّد ان يعمل على شاكلتها، أي ان يقلدها.

واذا كانت هناك اعمال او عمليات تقليد.. واذا كان هناك من يقلد، فان في ذلك برهاناً على أن ما يقلَّد قد وجدت

له تجسيدات واوضاع في زمن من الأزمان، أو هو موجود امام مخيلة المقلدين او امام انظارهم او في وعيهم الباطني.

وعلى هذا الأساس فان علماء مصر الفرعونية حاولوا، بكثير من الجهل وقليل من المعرفة والخبرة، تقليد عمليات روّاد الكون القدماء الموهوبين من لدن الآلهة في تنويم مرضاهم قبل ان يموتوا وحفظهم تحت برودة الصفر المطلق[1] لينقلوهم معهم الى كواكبهم الأساسية بعد اتمام رحلاتهم الى الأرض.. او لِيُنهضوهم ثانيةً من رقادهم بعد التوصل الى استئصال جذور المرض او بعد توفير الدواء له. ان تلك العمليات كانت تجرى بمنتهى المعرفة والعلم والحكمة.. وكان قد سمع بها « صغار » العلماء البشريين الذين اصبحوا فيما بعد « علماء » الشعوب. أو كانوا قد رأوا طرفاً منها. أي أنهم كانوا يجهلون وسائلها والمواد المستعملة لإنجاحها ودقة تنفيذها واهدافها البعيدة...

وراح « علماء » مصر الفرعونية يحنّطون موتى كبار هذا العالم في بلادهم، اذ كانوا يفرغون جوف الميت من كل احشائه، ويلفلفونه بأقمطة كثيفة. وكان اعتقادهم بأن هذا الكبير سوف يُبعث ليلاً ليطير نحو النجوم، تاركاً احشاءَه في الأرض في بطون الديدان والحشرات.. جهالة كبرى إذ انه لو أُعطي للميت ان يبعث من القبور، فكيف يصحّ له ان يعود فيحيا دون احشاء؟

تلك هي عملية تقليد تثبت، رغم فشلها، قيام العملية الأصلية في الماضي السحيقِ؟ وتُبيِّن ان قدرة الآلهة هي غير قدرة البشر المقلِّدين. ان ما صنعته الآلهة لا يصحّ أن يصنعه الناس.

---

(١) اي ٢٧٣,١٥ درجة تحت الصفر المعهود.

وفي عصرنا، المدعوّ عصر العلم، توصّل العلماء إلى إجراء عمليات التنويم العلمي على بعض الحيوانات الصغيرة. لقد نجحت هذه العمليات في مجالات الحيوانات الصغيرة وفشلت في مجالات أخرى وأخصّها في عالم الانسان.. إلا أن المحاولات مستمرة.

ثم ان علماءنا اليوم يحاولون — وفي اعتقادهم انهم هم ايضاً قادرون على الإبداع — زرع النطفة الملقحة في انبوب زجاجي ليصنعوا منها بداية لحياة جنين انساني ليعودوا فيضخّوا هذه البداية في رحم امرأة ليس لها علاقة بالنطفتين. لقد نجحوا في هذه العملية؛ وانجبت النساء الحاملات بهذه الطريقة اطفالاً سالمين.. دون ان يتأكد أحد من هذه السلامة او من مستقبل التناسل على المدى الطويل.

إلا أن هؤلاء العلماء عندما تجرّأوا على اللعب بعناصر بيولوجيا الطبيعة وعلى القيام بتقاطع الأنواع عن طريق تخصيب نطفة حيوان بنطفة انسان ونطفة انسان بنطفة حيوان.. ماذا حدث؟ لقد اعطت العملية مسوخاً.. وعاد العلماء فأقفلوا هذا الباب، خوفاً من ان اللعب بهذه النار الإلهية يحرق اصابع اللاعبين انفسهم.

وهنا وعلى الأخصّ نستطيع القول ان الذي تصنعه الآلهة ليس في مقدور الناس، المصنوعين من الآلهة، ان يصنعوه.

الا انه في محاولة، كالمحاولة العلمية الأخيرة، دليل كبير على وجود أثر لشعور الانسان بما عملته الآلهة في تركيبته العقلانية في الماضي البعيد — أثر لا يزال يتخايل في الوعي الباطني لنفوس كبيرة تحاول تقليد الآلهة. ان فيه الدليل على ان الآلهة، بقدرتها الابداعية وعلمها الأكمل « بندقت » الأنواع وحولت الحيوان انساناً عقلانياً.

وهكذا استطيع الجمع بين رواية التوراة في خلق الله للإنسان حيث « نفخ » فيه نسمة الهية وجعله على صورته ومثاله.. ونظرية الطبيعيين (ومنهم داروين) القائلين ما يلي: « في وقت ما، وعلى طريق التطور، انفصل عن القردة، عند احد مفترقات هذا الطريق، حيوان من نوعها اصبح فيما بعد انساناً.

تكوين الإنسان ليس كما جاء في التوراة

ولا بدّ لي أن آخذ عنصراً آخر من التوراة العبرية، وهو عنصر قوم العمالقة الذين كانوا يقيمون عند رؤوس الجبال العالية يوم حدث الطوفان التاريخي وأفنى جميع بشريات تلك الأزمان. بشريات العمالقة التي سكنت الأرض وحكمتها طوال مائة وخمسين مليون سنة لم تذكر التوراة العبرية أي تفصيل عن تكوينها واسباب وجودها. ولم تهتم التوراة الاّ بروايات البشريات « الصغيرة التي تناسلت عن حواء وآدم » وأُلغي قسم كبير منها بواسطة الطوفان.

إلّا أن التوراة تكلمت في سفر التكوين عينه عن العمالقة قائلة فيهم حيناً « قوم ذوو حكمة كبرى وشهرة واسعة »، وحيناً آخر « قوم اعتراهم الإنحطاط النفساني وفقدوا كل حكمة »؛ وتضيف التوراة: « ان الحكمة موجودة في السماء وان العمالقة اصبحوا عاجزين عن الذهاب الى السماء ليأتوا بها من جديد ».

ان هذا الكلام يلخص أروع تاريخ لأروع حضارة عقلانية تفتحت ونضجت وهرمت وتلاشت في هذا الكوكب.

على هذا الأساس استطيع القول ان تسمية آدم وحواء التي اطلقتها التوارة على مخلوق واحد قسمه الله الى شطرين (أي

شقّ الواحد من الآخر) هو تعبير فلسفي علمي فينيقيّ عن امتزاج النَفَس الذي هو الهواء (حواء) بالتراب أو الأديم (آدم).. اي على تعانق روح وجسم لتكوين المخلوقات الحية: وأكملها الكائن الإنساني في الأرض.

لقد لخّصت التوراة العبرية تواريخ كثيرة مختلفة وجمعت مختلف ادوار الزمن، والأحداث الكبرى التي جرت على مرّ المراحل التي استغرق كلّ منها ملايين السنين، في عناوين وفصول ورؤوس اقلام تنطوي، في نظري، تحتها آلاف الروايات؛ دون ان تتطرق التوراة الى وقائعها.. أو دون أن يكون مصنّفو التوراة مطلعين عليها.

وجاء التوراتيون، بكثير من الخيال المجاني الشديد، يحيكون فوق القشور نسيج نظريات بعيدة عن المنطق تتمحور على عظمة التكوين وقوة الخالق (أمران لا نستطيع ان ننكرهما)، دون ان يعرفوا ماهية هذا الخالق.. وعلى دهشتهم حيال خلق الوجود في ستة ايام.. وعلى اعتقادهم المضلل بأن الله يأمر بهذا او ينهي عن ذاك.. وان الإنسان خلقه الله على صورته ومثاله، بالرغم من معرفتهم بالنقائص التي لا تحصى لهذا الكائن العقلاني الذي أُعيد تكوينه مرتين (او ثلاث.. من يعلم؟)، وقد تُعاد صياغته في سياق الزمن (من يعلم ايضاً؟).

والتوراتيون واللاهوتيون غرقوا معاً في بحر النظريات الوهمية، دون ان يتعمقوا في عمق التواريخ الكبرى الطويلة التي تتابعت. ان اهمية هذه التواريخ تفوق مليون ضعف اهمية مقولات التوراة.

وفي عقائدهم المتوارثة والموجودة في عقول الناس وقلوبهم

من حيث كون التوراة كتاب مقدس منزل.. قطعوا الطريق على الأبحاث الفلسفية التي ابتدأت، قبل ان تكون هناك توراة، وهدفها يرمي الى أبعد ممّا روته الكتب المقدسة.

مراحل التكوين منطقيًّا

كان للتكوين، في الأزمنة المنصرمة، مراحل يمتدُّ كلٌّ منها على مليارات السنين. كما ان التكوين لا يزال متواصلاً بفعل التغيُّر الدائم أي الهدم وإعادة البناء.. ولأجل ذلك وُجد الزمن!

فنظرية الهنود، في هذا الموضوع، أصدق النظريات وأقدمها؛ لأنها كانت في فكر الإنسان وعلى ألسنة الناس قبل ان تكتب التوراة العبرية بآلاف السنين.. أي قبل ان ينزل القَذَق اليهود الأوائل من وراء جبال هملايا الى سهول بلاد كشمير من حيث نزحوا فيما بعد الى بلاد شنَّار (النهرين) أي بلاد إيل الأشورية البابلية.. والنظرية العلمية الكلاسيكية القائلة بأنه: « لا شيء يُفقد بل كل شيء يتحوّل » تتوافق مع نظرية الهنود الذين يعتقدون بأن الآلهة قيِّمون على هذه الصيرورة الكونية المتواصلة في الزمان والمكان.

ان الأكوان العظمى غير المحدودة وغير الخاضعة اطلاقاً لتعريف أو وصف تحكمها، كما قلت، الطاقات الفاعلة الكونية المشترك عملها في إظهار واقع الوجود وسير الوجود ونظام الوجود ووجود الوجود.

وحيث ان الوجود ظاهر لعلم الإنسان في نظام الأكوان والمجرّات والأنظمة الشمسية وانظمة الأبراج والتنسيق في مسارات

النجوم وفي فعل الطاقات الفاعلة الكونية التي لا نعرف شيئاً عنها في اجزاء صغيرة من هذا الكون الذي ننتمي اليه.. نستطيع ان نقول اننا مبدئياً في الوجود الكوني منذ ان تقرّر الوجود. اين كنّا؟ مَن كنا؟ كيف كنا؟ من نحن؟ الى اين نحن صائرون؟

السؤالان الأخيران هما من صنع حالنا العقلانية التي قد يمكن ان تكون ابتدأت عند عملية تحويل الحيوان الأرضي النبيل (ابن عم القردة) الى كائن عقلاني في يوم نفخ الله فيه نسماً من روحه وجعله على صورته ومثاله.

والأسئلة الأولى الثلاثة تتعلق ببداية تاريخ الإنسان.. وقد تعطي هذه البداية الجواب عمّا آلَ اليه التحويل المشار اليه وعن مصير هذه البشريات الحاضرة التي اضاعت بساطة الحياة الطبيعية الماضية في الأدغال والكهوف وراحت تتخبّط، في عقلانيتها، في همومها المعيشية وخوفها من الغد المجهول، ولا اكتفائها بما رُسِمَ لها بين الأنواع.. لأنها تعتبر نفسها خارج الأنواع وفوقها وأشرف منها مصيراً، وفي احلامها الطائشة لاعتقادها بأنها سليلة آلهة ــ وهي احلام تقودها دوماً الى القلق والخوف والقنوط واحياناً الى اضاعة صوابها العقلاني.

حضارات عقَّدها اللاهوتيون

ولقد تحاشى اللاهوتيون الدخول في هذه الدراسة الكبرى العميقة التي لو وَلجوها لكان قد تغيّر فهمهم لكل شيء.. ولكانوا أراحوا الشعوب، وعلى الأخص مفكري الشعوب، من عناء إعمال الفكر في قضية خلق الله (إلهٌ اتفق بعض قدماء الباحثين على تشكيله وتصويره وتسميته بأسماء مختلفة) لكائن عاقل اسموه

آدم، شقَّ الله منه كائناً عاقلاً آخَرَ اسمه حوّاء ـــ زوجة له ـــ وذلك ليبعد الله عنه شعوراً بالوحدة أي ليكون قابلاً للتناسل وتعمير الأرض.. ومن عناء إعمال الفكر، طوال الفي سنة، في قضية تفاحة الجنة والشيطان الوسواس، وقطف ثمرة شجرة معرفة الخير والشر، والخطيئة الأصلية التي ركزوا صورتها المخيفة في مخيلة آلاف الأجيال البشرية البريئة فأدى ذلك، ربما، للإنزلاق الى عادات سيئة كثيرة عملت ضدّ مصلحة الوجود الإنساني، واعطت صورة مخطئة عن مقومات التاريخ ومساره.

الإلٰه المزعوم

ان الإلٰه المزعوم هو، إذاً، شكل مبهم خلقه الناس على صورتهم ومثالهم، اولاً؛ ليستطيعوا أن يقولوا فيما بعد انه هو الذي خلق الإنسان على صورته ومثاله.. هذا الإلٰه التوراتي عينه.

إلّا أن شعوباً أعرق من الشعب العبري ـــ كالسومريين والأكاديين وشعوب المايا والأولميك والأنسكا والهندوس وغيرهم ـــ كان لديها آلهة كثيرة كالإلٰه فيراكوتشا والإلهة « ذات الأذن الطويلة ».. وكان علماؤهم، عندما يتكلمون عن الله الخالق، يقولون « هو »، لأنهم يعتقدون انه لا يسمّى ولا يُحصر ولا يُعرف..

.. الى أن جاء اليهود فسموه « يهوه » وجعلوا منه قائد جيوش يحالف شعبهم وينكّل بأعدائهم.

.. والى جانب ذلك صفات اخرى لا تحصى استنبطها الناس ووصفوا بها القوة العقلانية الإلٰهية الكونية، روح الكون وجوهره

ووجود الوجود، أي الإلٰه الخالق ووعيه الأسمى والحكمة العقلانية المنظمة لعناصر الكون المنسقة لأجزائه.

ان الإلٰه الخالق الأسمى ليس له لا صورة ولا شكل ولا مجموعة ارادات متضاربة او متناقضة في هذا الجزء او هذا الزمن او ذاك الجزء وذاك الزمن الآخر من الأكوان غير المتناهية.

بعض الدور الايجابي للعبرانيين

إلّا أن العبرانيين لعبوا دور « مقطّعي الطريق » (وليس قطّاع الطرق) فأوصلوا الشعوب من وراء ضفة التواريخ المنسيّة الى ضفة التاريخ الذي عاشوا في سياقه أخبار وروايات تتعلق بعصور مختلفة تعاقبت او تقاطعت، جاءَت خلالها تغييرات جذرية وتحولات كبرى.

ومعروف أن كل عصر يمتد على مدى ملايين السنين بل مئات ملايين السنين. وبعملهم هذا يكون العبرانيون قد أعطوا للباحثين ولمفكري الأمم اشارة خاطفة، كوميض برق، الى تواريخ احداث كونية وانسانية كان الزمن الغابر قد توقف عندها ليشهد على حدوثها وليحمل بصماتها الى سجل التكوين. ونعرف ان هذا السجل مثلث القواعد الوجودية: خلق، تدمير، واعادة تكوين.

وقد وصل العبرانيون الى ساحة التاريخ في زمن كانت عنده تحتضر بشريات كبيرة من الهند وأواسط الجزيرة العربية وبلاد بين النهرين وارض الفراعنة وبلاد الأناضول وارض الكنعانيين وارض الحضارات المائتة (حضرموت) وغيرها.

آثار جبارة وحضارات ماتت

ان المصريين أنفسهم ــ باستثناء العلماء الذين اعتراهم الانحطاط فيما بعد ــ لم يكونوا يعلموا ان الممرّ الداخلي، المتصاعد بانحراف تدريجياً من تحت الى فوق في هرم الجيزة الكبير، كانت فتحته العليا مصوبة بدقة نحو نجم سيريوس (في برج الكلب الأكبر) اكبر النجوم لمعاناً في السماء.

فما كان غرض ذاك البناء وهذا التصويب؟ أليس لأن علماء مصر القديمة كانوا يراقبون احداثاً كبرى في تلك المنطقة من السماء؟ وهل لم يكن ذلك من حيث انتظارهم مجيئاً ثانياً لروّاد كونيين قد يكونوا اتوا من ذاك المكان الكوني مرةً او عدة مرار سابقات؟ اوليس في ذلك دليل على ان علماء آخرين سبقوهم لعدة آلاف من السنين وتركوا لهم رسالة علمية رأوا ضرورة تسجيل شيء منها في الواقع الأثري للتذكير بحدث كوني هام من الأحداث؟

رموز العلم القديم لم يفهمها موسى عينه

ان العبرانيين الذين عايشوا الشعوب المصرية طوال خمسة او ستة قرون لم يكونوا ليعوا تلك المعاني التاريخية لأنهم لم يكونوا اصحاب حضارة علميّة. فموسى الذي تثقف في هيكل إله الفرعون اخناتون توصل، عن طريق تعاليم هذا الفرعون[1]

(١) فرعون كلمة اغريقية تحريف للاسم الصحيح وهو برآع. وهذه كلمات آرامية تعني ابن آعْ او ابن رَعْ. أي ابن الشمس. واذا صحّ لنا ان نعتبر ان مدينة الشمس او هيكل الشمس الاقدم في العالم هو بعلبك موطىء قدم الاله ومسكن الكهنة وان مدينة القاع، في جوارها، مسكن أمراء البلاد وكبار هذا العالم، في القديم، يكون الفراعنة منحدرين من اصل كنعاني.

الحكيم، إلى معرفة ان إله الشمس، وهاثور، وانوبيس، ومعت وغيرهم ليسوا سوى رموز لقوة النور والقدرة البدنية والحكمة ورغبة الخلاص من هذا العالم، وان إلٰهاً واحداً خالقاً هو الإلٰه الصحيح القائم فوق جميع آلهة الشعوب.. ذاك كان همّ موسى الذي توخى الاعتماد على هذا الإلٰه لتخليص العبرانيين من اضطهاد المصريين واستعبادهم لشعبه.

ولم يهتمّ موسى لا في معرفة رموز العلم المصري ولا في أخبار شعوب عاشت في تاريخ اقدم ـــ كشعوب الأطلنتيين والليموريين، شعوب غربي الكرة الأرضية وشرقيّها ـــ فهذه الأخبار كانت مسجلة بدقة في سجل علماء مصر المحافظين على آثار الثقافات والأحداث الكونية العريقة في مكتبات الهياكل الفرعونية.. وبدَّد الفاتحون من فرس وآشوريين ورومان واغريق الثروة العلمية المصرية القديمة.. وغرقت الشعوب المصرية، دون حراك علمي وحضاري، في سُبات طويل ثقيل دام اربعين قرناً على وجه التقريب.

وبعد موسى جاء عزرا، مصنّف التوراة، مع سبعين من علماء العبرانيين، وأخرجوا ما في جعبة مَن سموه « كليم الله » وضمّوا اليه معلومات وصلت الى آذانهم عن شعوب اخرى.

اصل العبرانيين

ولنظلّ مع العبرانيين « مقطّعي الطرق » ومع توراتهم واخبارهم والأخبار التي نقلوها، اكثرها كرؤوس اقلام لا غير، تعني كثيراً ولا تفيد إلّا قليلاً، وتعود الى تواريخ ملأى بالأحداث والتغيُّرات البشرية والإجتماعية.

ليس صحيحاً ان العبرانيين جاءَت أرومتهم الأولى مع ابراهيم وساره (أبرام وساراي، في الأساس) وابن أخيه ومواشيهم من أور مدينة الكلدانيين المقدسة الى ارض كنعان أي الى مملكة الإله إيل الممتدة من ايليون (طرواده) في غربي ما هي اليوم تركيا امتداداً الى جبال طوروس وراس شمرا (اللاذقية) ونزولاً في الممالك الفينيقية الصغيرة المتحالفة حتى عكا والقدس وبلاد العمونيين جنوباً وبلاد الجابوسيين شرقاً.. وليس صحيحاً ان العبرانيين بدأوا بالتكاثر في حماية الملك الصادق ملك اورشليم ووكيل الإله إيل في بلاد الكنعانيين.. وانهم من هنا انطلقوا وامتدوا جنوباً وتألف من هذا الإمتداد ما سمّوه باسباط اسرائيل الاثني عشر (وقد نسوا السبط الثالث عشر المؤلف من اولئك الذين عبدوا الثور، والعجل، عند تغيب موسى في جبل حوريب بسيناء، وهو سبط لا يزال ينعت اليوم بالعجول).

فالعبرانيون، او اليهود او القازاق، كانوا قبل ابراهيم، وظلوا بعده، في مناطق مجاورة لبحر الخزر، بحر قزوين، وفي القوقاز وشرقيه، وفي مختلف انحاء الجزيرة العربية.. كما انه لا يزال في بلاد كشمير، في شبه القارة الهندية، هيكل كبير مهدّم منذ عصور غابرة يقال له اليوم: هيكل اليهود.

فاليهود، أو القازاق، أو العبريم، كانوا في القديم جماعات من الناس العقائديين يؤمنون بالإله الواحد: « يَهْ » أو « يَهُوْ » أو « يَه هُوَ »؟ كان اسم الإله الواحد. وحسب لهجاتهم المختلفة، كان بعضهم يقول فيه « يَهْ هُوْ آه » والبعض الآخر « يَهْ هُوْدَهْ ». وكل من الكلمتين تعني يَه هوَذا أو هذا. ومن هنا اشتقت تسميتهم باليهود. اما تسميتهم بالعبريم او العبرانيين ليست كما يعتقد البعض من اسم عَبرام أو أبرام (ابراهيم) بل من مصدر كلمة العبور،

أي الشعب المتجوّل وشعب الرُحَّل عابر البلدان كشعور الغَجَر والنَوَر. وبعد تكاثر شعوبهم في ارض كنعان واندماج قسم من حطامهم الديني مع حطام ديانة الإله إيل، اصبحوا يسمونه « إيلوه » (الله) ويستعملون احياناً الكلمة بصيغة الجمع « إيلوهيم » (الآلهة).

واذا كان اللاهوتيون المسيحيون لم يعوا هذا التسلسل في الأحداث قبل التوراتية وبعد التوراتية فلأن قابليتهم على الخوض في ابحاث التاريخ الذي نشأت ديانتهم عند أحد منعطفاته ضعيفة وموصودة، بخلاف قابليتهم على امتصاص ما قدَّمه الآخرون والأقدمون.. شأنهم في ذلك شأن علماء المسلمين الذين منذ الفٍ واربعمائة سنة ونيف لا يزالون يتغنّون بمقولات هذا وذاك وذلك الآخر، خاضعين لمن أتوا في ذاك العهد القديم مستسلمين لمناهج واعتقادات لم تعد تتلاءَم مع طموحات الناس الى المعرفة، ولا تتفق مع ما تجيء به كل دورة من دورات الحياة البيولوجية ولا مع ما هو مقرّر لكل منعطف من منعطفات التاريخ.. وهل هم يدركون شيئاً عن تلك الدورات الحيوية وعن التغييرات الحتمية المرسومة كما للكون كذلك لهذا الكوكب الأرضي؟

بل، وهل يعلمون ما هو التاريخ؟ وما هي احداث التاريخ الكبرى التي حكمت على بشرياتنا الحاضرة بان تكون ـــ كما سبق للبشريات المنقرضة ـــ أداةً تعليها الأقدار احياناً وتحطها احياناً أخرى؟

ان هذه الأقدار هي ما لا نفهمه من التغيُّرات الكونية الخاضعة لها الأشياء والكائنات منذ ما قبل وجودها حتى اختفائها عن مسرح الوجود.

التواريخ الصحيحة

أعود للعبرانيين واقول انهم، بفضل اقامتهم في شمالي شرقي آسيا وفي الشرق الأوسط والجزيرة العربية وفي آسيا الوسطى، قد جمعوا أخبار الحضارات - المندثرة والحضارات المنطوية في جوف الأرض، والحضارات المحتضرة، وأوصلوها الينا.

ورؤوس الأقلام التي افادونا بها، جاءَت الأبحاث البيولوجية من جهة؛ وجاء علم الآثار، من جهة اخرى، لتدلّ على تطور الأحداث الكبرى التي تشير اليها ولتجلي صورتها ولتعطيها مكانتها في التاريخ.. بالرغم من ان المؤرخين جهلوها أو لم يتمكنوا من الحصول عليها أو تسجيلها أو أضاعت الكوارث الكونية والأرضية مقوماتها وسجلاتها أو طواها النسيان باكفان كثيفة مغيَّبة في جوف الأرض. والنسيان شأن كبير من شؤون الوجود ومن شؤون الحياة البشرية الأرضية والتواريخ الكبرى التي اوردتها التوراة للأسباب التي ذكرت، هي:

١ ـــ تاريخ خلق الكون
٢ ـــ تاريخ خلق الكائنات العاقلة (أي الانسان)
٣ ـــ تاريخ الآلهة
٤ ـــ تاريخ العمالقة والبشريات المنحدرة منهم
٥ ـــ وتاريخ نفوذ المرأة وسلطانها على الرجل عن طريق حوّاء التي اكرهت آدم على « أن يقطف ثمرة شجرة معرفة الخير والشر ».. وهذا هو تاريخ المرأة أو عهد الإلٰهة ـــ الأم المعروف لدينا في علم الآثار وعلم الأبحاث التاريخية وعلم الظاهرات النفسانية والإجتماعية.. في التاريخ وفي الواقع الذي لا يزال قائماً في شعوب كثيرة من شعوب الأرض.

وهذا المجال هو مجال الفلسفة (وإن كان رجال هذا العصر قد تنكروا لها من حيث كونهم يجهلون معانيها ومثاليتها) دائمة البحث والتعمق. ولا يعرف هذا المجال المفكرون من داروينيين وغيرهم الذين لا يتجاوز تفكيرهم التراب والشؤون الترابية.. وكلهم متحجرون ولم يعرفوا ان يرفعوا تفكيرهم نحو السماء (ليس سماءهم الصغيرة الوهمية) بل نحو الكون ونحو الآفاق التي لا تُحدّ ونحو الأبعاد الكونية التي لم يعرفوا منها سوى ثالوثها الأرضي المعروف: الطول والعرض والعمق.

لقد ظلّ هؤلاء، من حيث تفكيرهم العقيم أو المحدود أو الموصود، على هامش الفتوحات العلمية، غير مؤمنين أو غير مدركين للتطورات البيولوجية والعلمية والكونية والتاريخية.. شأنهم في ذلك شأن القرود التي انفصل عنها ابن عمها الانسان يوم أشعَّ في تركيبته الفيزيولوجية نورٌ عقلاني جعله يقتحم الجسر الفاصل بين الغريزة الأرضية والعقل الكوني ويعبر الى الضفة المقابلة حين ظلّ ابناء عمه عند الضفة الأخرى يرون ولا يفهمون، ولم يُعطَ لهم، حتى بعد مرور ملايين السنين على هذا الحدث الأكبر، ان يقتحموا الجسر الموصل الى ضفة العقلانيين ليفكروا بالكون وليرقبوه وليقيموا له الحسابات.. ولن يُعطى لهم ذلك حتى بعد مرور مليارات السنين. وماذا تعني العقلانية الانسانية التي ابدعتها الآلهة يوم اختارت المخلوق البشري لتلقيحه بشيء من جوهرها الإلهي؟ انها تعني في الانسان نسمته من الروح الإلهية الكونية لإدراك الوجود ولمعرفة الصواب والخطأ وللتفكير بالخلق والتكوين ولفهم الأمام والوراء أي ماضي الكون وحاضره ومستقبله ومصيره.

تاريخ خلق الكون

« في البدء خلق الله السماء والأرض ».. هذا ما تتحفنا به التوراة العبرانية، ملخّصة فيه نظرية علمية « تحصيل حاصل » إذ لولا وجود السماء لما وجدت الأرض.. ولولا وجود الأرض لما استطاعت الأنواع البيولوجية النشوء عليها ولما عاش الانسان، حيواناً في البداية مع سائر الحيوانات، وانساناً عقلانياً بالتالي، أي بعد حدوث تحويل، غير مألوف في طبيعة الطبيعة، في تكوينه الفكري. والفكر الانساني يمتدّ ليعانق الكثير من الأبعاد الكونية غير المرتبطة بها الكائنات الحية الأرضية الأخرى.

وخلق السماوات والأرض ليس سوى جزء من مليارات الأجزاء من خلق الأنظمة الشمسية وانظمة الأبراج والمجرات والأكوان القائمة وراء المجرات والأكوان الجاهزة للصيرورة الماشية في سبيل ان تحلّ محلّ اكوان اخرى هي في طريق التحوُّل.

ليس اذاً للأكوان بداية ولن يكون لها، بصفتها وجود مجهول الأسباب والمصادر، اية نهاية، لأنها هي الأسباب والمصادر الباعثة لحركة التحول والمنبعثة عنها. وهذا التحول الدائم هو الداعي الى استمرارية الكون والى اعطائنا فكرة حاسمة عن لا نهاية الكون.

فعمر الكون المحدّد ببضعة آلاف السنين، كما تقول التوراة، تبسيط كبير.. كما ان ترسُّب الفيمة السديمية الكبرى في مجرات وشموس وكواكب وتنظيم حركاتها ومساراتها واقامة المجالات الكبرى الفاصلة بينها والطرقات الهائلة التي تتبعها في حركة الكون الجبارة — ترسُّب مقدر بعدة مليارات السنين — هو مغامرة (أي الاعتقاد بحدوث ذلك) علمية طائشة ليست لها اصول

وقواعد.. حيث ان قياسات الناس للأعمار تعتمد على زمن معروف في الأرض ومختلف تماماً او مجهول في الكون.

أي أن الزمان الذي نعرّفه بانه « عدد الحركات بين ما سبق وبين ما يلحق »، أي عدد النبضات والدورات والظهور والاختفاء، والبزوغ والأفول ــ وجميعها من انطباعات الانسان وحسابات حركاته وايامه في الأرض ــ ان الزمان المعرَّف عنه بحاضر وماضٍ ومستقبل ليس له وجود في الكون حيث الاستمرارية ليس لها معنى آخر سوى استمرارية الوجود بتحوُّلاته الدائمة غير الخاضعة لقياسات تعتمد على الوراء والأمام والماضي والمستقبل.

.. ذاك هو الكون.. وذاك هو خلق الكون.

تاريخ خلق الكائنات العاقلة

عندما يعمد الانسان الى التفكير في اسباب الكون واصوله وماجَرَياته الوجودية، وإن كان تفكيره الآني لا يطال سوى رقعة صغيرة يراها ويشعر بها ويستدلّ عليها بالمنطق اولاً. وبالاجهزة التي أوحى بابتداعها علم الانسان البحّاث، ثانياً.. يعتنق الوجود باكمله ويدخل الى الصورة التكوينية الكبرى.. أي أنه يطلّ على آفاق الابعاد غير المعروفة وعلى آفاق العقل الكوني الذي استمدّ منه وميضه الوجودي والقائم في كل شيء ووراء كل شيء في اللانهاية الكونية.

الكائنات الشعورية

لكل شيء في الكون حسُّه أو شعوره أو ادراكه أو فهمه أو عقله أو نوره.. الى جانب بعده الوجودي.

فلو لم يكن للذرّيات الدقيقة شعورها الوجودي لما بحثت عن التلاصق بذريّات اخرى تتجانس معها.. ليؤدي الجميع دوراً وجودياً معروفاً.

والاشعاعات التي تبثُّها الأجسام هي نداء الى مغناطيسية الأجسام الأخرى لتتجاذب ولتتفاعل — لأن هذا التفاعل هو سبب وجودها — ولتقوم بالدورات الضرورية لإظهار الوجود وتبيان دور معيَّن في الوجود.

إن مَن يقول ان النباتات أشياء تظهر وتختفي بعد نموّ وجيز وهي خالية من الحسّ، والشعور بالوجود، هو وحده الخالي من الفهم.. حيث أنها، من أدقها الى اكبرها، تزهو بوجودها فتنكمش وتتجهَّم حيث لا يلائم ظهورَها بملء زهوتها وقوتها وجمالها؛ وتنتعش وتلمع حيث ترتاح الى المكان الذي تنشأ فيه. هي حسّاسة ايضاً لأنها تتآلف مع وجود الكائنات الحيوانية الأخرى التي تستفيد منها في غالب الأحيان وتفيدها هي في بعض الأحيان الأخرى. وبهذا الحسّ النبيل تحوّل نفسها الى قوت يقتات به الحيوان.. وفي اكثر الأحيان يعتمد الانسان المدرك العالم على عناصرها الجوهرية — كرائحتها وروحها وعصارتها — ليصحّح ما تعطل من عناصره الفيزيولوجية والنفسانية، أي لإصلاح ما تخرّب في جسمه من الأنسجة والخلايا والأمصال الدموية بسبب الأمراض.

انها مخلوقات شعورية. وادراكها الشعوري مقتصر على دورها المعيَّن في الكوكب الذي نشأت فيه، بالتناسق مع ادوار الكائنات الحساسة الأخرى، ومن بينها وفي رأسها الانسان.

محدوديّة الفهم

إن مَن يقول ان الحيوانات ليس لها روح وليس لها فهم غير الإدراك الغريزي، وليس لها شعور نبيل.. لا يدرك لا معنى للروح ولا اهمية للفهم ولا آفاق للحسّ الدقيق الناشئة عنه صفات نبيلة. وهي، وإن كانت لا تتطلع الى السماء والى الآفاق البعيدة، كما يفعل الانسان، ذات نفوس ذكية بمعنى الذكاء وذكية بمعنى طيبة التصرُّف والاستسلام لواقع الوجود. كما ان درجة الفهم الذي أُعطي لها حُدّدت بدورها الحيوي والوجودي في الأرض. ان هذا الدور يقتصر على العيشة والتكاثر ثم الانحلال دون أن تترك أي أثر في التاريخ.. وإن قسماً من دورها الوجودي يقوم على خدمة بعضها وخدمة حيوان اسمى منها من حيث دوره العقلاني. وبهذا الخصوص يقول البحاثون في الأسباب العاقلة والمعقولة للوجود: بئست القاعدة القاضية بان الأجناس الحيوانية في الأرض تعيش ليأكل بعضها البعض وليُفني بعضها البعض الآخر!.. هي قاعدة بربرية مشؤومة وملعونة؛ لكنها قاعدة لا مناص من الخضوع لها.

وهنا يصح السؤال هل الطبيعة اخذت عن البرابرة بربريتهم أم هم البرابرة الذين « بربرتهم » الطبيعة فاخضعتهم، بتصرفهم المشهور، الى قاعدتها.. ان البرابرة اصناف من الناس، يقيمون في اوساط كل الشعوب، كانت الآلهة قد اخرجت أرومتهم

من الحيوانية العنيفة لتجعل منهم كائنات عقلانية. إلّا أن فعل الآلهة لم يكن كاملاً.. أو ان ارومتهم الحيوانية الصعبة القاسية لم تتجاوب كل التجاوب مع عملية التحويل الإلهية، فظلت الحيوانية القاسية مسيطرة عليها وظلت خاضعة لقاعدة الطبيعة بان الأقوى يفتك بالأضعف. وعند أكل الأقوى للأضعف في عالم الحيوان، ليس من شفقة، حيث ان الشفقة شأن عقلاني.

تدخُّل الآلهة

لنعد الى التوراة العبرانية:

تقول التوراة ان الله جبل طيناً من التراب واعطى له شكلاً معيناً ونفخ فيه نسمة الحياة العقلانية: الانسان الذكر. ثم أنام هذا المخلوق واقتلع منه ضلعاً وصاغ من الضلع كائناً عقلانياً ثانياً: الانسان الأنثى.

ان هذه القصة بالرغم من تحديدها لمكان خلق الانسان وزمانه وكيفية صنع الانسان، تحملني على طرح السؤال عمَّن اعطى الوجود لمَن؟ هل الرجل اعطى الوجود للمرأة أم المرأة اعطته للرجل؟؟

ولا أريد ان ينشأ حول هذا الموضوع جَدَل بيزنطي ليس فيه فائدة للعلماء وللعلم. فالمرأة، حسب التوراة، اشتقت من الرجل وليس العكس. وقد يكون التأكيد التوراتي انعكاساً مشوّهاً لنظرية علمية قديمة أخذ بها بعض كبار علماء التاريخ وفي مقدمتهم افلاطون « الفيلسوف ».

فهذه النظرية تقول بان اوائل الناس كان لكل فرد منهم جنسان

في جسمٍ واحد أي ان كلاً منهم كان ذكراً وانثى في آن واحـد.. وآدم التوراة كان واحداً من اولئك الناس الأوائل (Androgyne).

بل ان افلاطون ذهب الى ان الجنسين للانسان كانا ملتصقين وظلاّ على هذه الحال الى حين تدخلت الآلهة وعملت على فصل الواحد عن الآخر.

ونحن اليوم، وبعد مرور ملايين السنين، نرى أن الطبيعة تذكّر من حين لآخر بان نواميسها اختُرقت، حين تعود لتحمّل العامل الوراثي البيولوجي (le gène, le chromosome) رسالة متبلـورة لقاعدتها الأولى في التكوين: كم نرى من صغار البشر يولدون ملتصقين بعضهما ببعض؟ كم نرى من الرجال يحملون في بُناهم البيولوجية اعضاء تناسل النساء، الى جانب الصفات المعروفة عند النساء، كالضعف والميل الى الرجال والتصرُّف الخاص بالنساء؟ وكم نرى من النساء مَن يكنَّ عند بلـوغ سـنّ الرشـد يبـدأن بمعاشرة النساء ويبتعدنَ عن الرجال ويحملن الى جانب اعضائهنَّ التناسلية الظاهرة، المشلولة في غالب الأحيان، اعضاء تناسلية داخلية مختلفة، تجعلهنّ ينقلبنَ بعد عملية جراحية الى رجال ـــ ورجال ينجبون الأولاد باقترانهم الى نساء.

وبالنسبة لحيوانيّة الانسان التي لا تزال الطبيعة تذكّر بها من حين لآخر، كما لو كانت تطالب بحقها عليها، وتتبنّى الرسالة التي توجهها الى خيال الناس مطبوعة في الواقعيات البيولوجية، غير التي توجهها الى منطق الناس وهي بائنة بجلاء في طباعهم وتصرّفاتهم الوحشية البعيدة عن المزايا العقلانية.. بالنسبة لهذه الحيوانية الأصلية: ولادة التوائم من ثلاثة الى اربعة الى خمسة او ستة. وهذا يعني ان الانسان لا يزال حيواناً؛ وفي هذا المجال،

لا يبتعد لا قليلاً ولا كثيراً عن بعض الحيوانات كالأرانب والسباع والقطط والكلاب والخنازير وغيرها من حيوانات الغاب او البحار الأخرى.

وانطلاقاً من هذه الظاهرات واستنتاجاً منطقيًّا ممّا تدلّ عليه، انني اعتقد ان الجوهر البيولوجي واحد في الأرض والكون، وانه كالتيار يتحرك على خطين متوازيين (ايجاباً وسلباً) ينشأ عليها جميع الأنواع الحية، من الغبارية الجرثومية حتى النحلة والديك والحصان والبقرة والفيل والحوت.. والانسان.

وهكذا — وهنا يقيم السبب — فان جُزَيئية صغيرة من كروموسوم أو من العامل البيولوجي الوراثي، في أحد الأنواع، تفلت من إطارها المرسوم لتذهب، على طول الخط البيولوجي، فتلتصق في إطار لنوع آخر، فتظهر فيه وهي غريبة عنه وتنمو معه وفيه، مشوّهة أحياناً شكله او معرقلة مسيرته الحياتية الفيزيولوجية والنفسانية.

يرون ولا يفهمون

وخطأ العلماء والمفكرين — إن لم أقل عموم الناس — هو في انهم يرون ظاهرات مثل هذه، دون ان يحاولوا التعمق في الدافع اليها وتعليل اسبابها وفهم معانيها.

وخطأهم الأكبر هو في تفهمهم السطحي لأحداث التاريخ وقبولهم بروايتها كما تُعطى لهم، او كما اوردتها لهم بعض الكتب القديمة غير المنطقية.

فالنظريات التي تبناها مصنفو التوراة، وأخذ بها العلماء

الروحيون، مخطئة جزئياً عندما تؤكد ان الله خلق الانسان خلقاً خاصًّا مميَّزاً، بعدَما أبدع الطبيعة والكائنات الحية الأخرى.

فالانسان واحد من الحيوانات التي وُجدت معاً كلاًّ بدوره وخصائصه المتعلقة جميعاً بالمحيط الطبيعي الذي يعيش فيه الجميع.

ولنأخذ عن نظرية شارل داروين نقطة واحدة من مجموع النظرية الفاسدة القائلة بتطوّر الأنواع والأجناس كقاعدة لتحسُّن الأنواع وللمحافظة على بقاء الأصلح: نقطة انفصال مصير الحيوان الانساني عن الأنواع الحيوانية الأخرى.

رجوع في الأصل الى الوراء.. الى الآلهة

ان هذا الانفصال لم يحصل نتيجة تقدم النوع الانساني على غيره من الحيوانات (واقربها القردة): أي بعد تطور من الأسوأ الى الأحسن، ومن الأعطل الى الأصلح. فكل تطور، بهذا المعنى، في الطبيعة والكون، غير موجود على الاطلاق. ان التطور الوحيد الذي أُعترف به منطقياً هو الانتقال من حال الصيرورة (ما يسمّيه الايمانيون واللاهوتيون بالعدم) الى حال التكوُّن الوجودي.

وعندما تتكوَّن الأشياء والموجودات تكون قد سجّلت نفسها في حالة التقهقر أي أنها تكون قد انخرطت في بداية طريق الانحلال التدريجي لتعود فتغيب في مجاهل الوجود.

أي ان التطور الذي تصوره الداروينيون واعتقدوا بانه شكل من الصعود من الأسفل الى الأعلى.. هو في الواقع عدّ تنازلي عكسي، نهايته الدخول في « العدم » او الرجوع اليه.

ولنعد الى التوراة ونقرأ في سفر التكوين في النصّ العبراني: « في البدء خلق الآلهة ». وهذا يعني ان القوة الكونية العقلانية الإلهية (الله بمعناه الكوني الصحيح) خلقت الآلهة. ومَن هم هؤلاء الآلهة؟ (بيريشيت برا ايلوهيم).

قبل كل شيء اقول ان الآلهة كائنات عقلانية في اعلى درجات العقلانية والنور والحكمة وقوة الإبداع.

وان الكثيرين من قدماء الشعوب قد تناقلوا اخبار الآلهة؛ واكثرهم، ومع مرور القرون وتشويه الأخبار المنقولة من جيل لآخر ومن شعب لآخر ومن شخص لآخر، قد أعطوا الآلهة رموزاً محسوسة وقالوا فيها مختلف المقولات وتصوروها قائمة على منابع الخير والشرّ في الأرض. والميثولوجيا الإغريقية حافلة بأخبار الآلهة والإلاهات وعطفهم على الجنس البشري، وحروبهم مع بعضهم ومع العمالقة، وتدميرهم للناس في حال الغيظ والسخط. وهوميروس يعزو الى تدخل الآلهة الى جانب ملوك الإغريق في حروب طروادة اسباب انتصار الإغريق على شعب طرواده وحلفائه (وكان لطرواده اسم آخر هو « ايليون » أي مدينة الإله إيل.. أي أن شعبها والشعوب الحليفة له كانوا كنعانيين).

الأرض ليست وحدها مسكن العقلانيين

قبل كل شيء يجب على الناس عموماً وعلى قادة الفكر فيهم، بوجه خاصّ، أن يقتنعوا بحقيقة استنتاجية منطقية وهي ان هذه الأرض التي يسكنون ليست وحدها، في الأكوان الواسعة غير المتناهية، موجودة لكي تحتضن الحركة البيولوجية، اي الحياة

النامية الحساسة والعاقلة. فالخطأ الذي لا يُغتفر يُنسب الى قدماء اللاهوتيين و« المتفلكين » الذين اعتقدوا — واقنعوا الناس — بان الكون (شيء صغير تصورروه) خلقه الله وخلق في وسطه الأرض وخلق في الأرض الانسان لكي يكون سيّد الأرض ومحور الكون.

.. ذاك كان اعتقاداً صبيانياً لا ينبعث عن أي منطق بل يرتكز على عناد احمق وطائش، مثلما يعتمد على نزعة عند الكبار، كما عند الصغار، الى التسلي بالأخبار والقصص.. لا للاستفادة العلمية، بل لإراحة فضولية الناس البسطاء باعطاء صورة تدغدغ بساطة التفكير لديهم.

ان نظامنا الشمسي المنطوي على الكرة الأرضية التي عليها نعيش، هو واحد من ملايين الأنظمة الشمسية التي استدلّ العلم على وجودها في مجرّتنا المعروفة بِ « درب الحليب » (أو درب التبّانة). وكل نظام شمسي قابل لأن يحتوي على عشرات الكواكب كالأرض، قابلة لأن تحتضن حركات بيولوجية مثل المعروفة لدينا.

وليس من المفروض ان تكون الحركات البيولوجية، القائمة فعلاً في الأنظمة الشمسية الكونية، على غرار الحركة البيولوجية في الأرض، بصفاتها ودرجاتها ودوراتها وظروفها.

أي أن النشوء النباتي قد تكون مصادره وطرقه مختلفة عمّا هي عليه في الأرض. وان الذاكرة العِرقية التي تتحكم بتصرُّف الحيوان (الغريزي) قد يكون لها في كواكب اخرى تابعة لأكوان اخرى أبعاد اقرب الى الفهم العقلاني منها الى الغريزة الفطرية.

وان العقلانية في الأكوان البعيدة قد تكون متجسّدة في كائنات

يختلفون شكلاً وتصرفاً عن بشرياتنا الأرضية. فنحن، في الأرض، خاضعون لثلاثية الأبعاد ومقيدون بنواميس الأرض وظروفها. اما العقلانية، المقدّر عن منطق وجودها في الكون فقد تكون بعض اشكالها مهيمنة على رباعية او سداسية الأبعاد أو أكثر من ذلك.. أي ان التقيُّد في مكان معيَّن غير وارد لديها. كما ان الدورة البيولوجية الأرضية التي يكيّفها الزمن الأرضي، قد يكون الزمن غير الأرضي آخر ما يعترض حركتها في الأكوان الأخرى. واذا كانت حركتها قليلة التقيُّد بمكان وزمان فانها كائنات أسمى درجات عقلانيًّا من بشرياتنا الأرضية.

بشريات أخرى اسمى درجات منّا.. سكنت هذه الأرض

عندما تنتقل، في بعض المواسم، جماعات حيوانية من منطقة في الأرض الى منطقة اخرى قصيّة ثم تعود في موسم آخر، الى المنطقة التي كانت قد غادرتها.. فانها تعمل بدافع من الذاكرة العرقية. ان هذه الذاكرة العِرقية هي التي قادتها في حلها وترحالها خلال ملايين السنين.

ومقابل هذه الذاكرة العرقية لا يوجد مثيل لها لدى الكائنات البشرية ــ اللهمَّ إلّا العنصر البيولوجي الوراثي الذي يختطّ للجنس البشري، كما للنبات والحيوان، طريقه الفيزيولوجي والحيوي والشكلي الانساني ــ بل يوجد شيء يعوّض عنها وهو النقل. فلولا النقل النطقي والتصويري او الإستنتاجي الفكري لما عرفنا شيئاً عن ماضينا السحيق وتحولاتنا عبر التقلبات الكونية وعبر العصور.. ولكان مستقبلنا حائطاً مسدوداً غير مشجع للمفكرين والبحاثين والعلماء، على الحياة.

فبالإضافة — وهي إضافة على جانب وافر من الأهمية — الى الأخبار المتناقلة من ابن عن ابيه وجدّه وأبي جدّه، نقلت الينا بعض الكتب وبعض المخطوطات وبعض الكتابات المحفورة في الآجُرّ وعلى بعض الصخور الصامدة على الزمن، اخبار بشريات مختلفة عن بشرياتنا الحاضرة، سكنت هذا الكوكب قبل ملايين السنين.

والى جانب اخبار التوراة وغيرها من الكتب، جاءَت حفريات الآثار لتخبر بدورها عن شعوب العمالقة الذين سكنوا الأرض قديماً وملأوها عدلاً وحكمة — ولا غرابة في ذلك فانهم كانوا منبع الحكمة وكانوا هم الحكماء.. ففي عهودهم كانت الزراعة مجهولة لأنهم لم يكونوا بحاجة لها حيث ان الأشجار كانت تعطي ثمارها طوال العام وسنابل القمح تنبت الواحدة بعد نضوج الأخرى دون انتظار تعاقب الفصول او الدفع البيولوجي المعروف في عصر بشرياتنا الحاضرة.

مفترق الطرق

فصل الحيوان « المعقَّل » عن الحيوان الأعجم

لنعُدْ مرة اخرى الى التوراة والى موضوع خلق آدم وحوّاء عن يد الله والى كيفية هذا الخلق — وهي كيفية مبسطة الخبر خارج حدود العقل والمنطق.

ولنأخذ معنا نظرية التطوريين، وبالتعيين موضوع « مفترق الطُرُق » حيثُ انفصل الحيوان الانساني عن حيوانات الأدغال وسلك طريقاً لم تستطعِ ولن تستطيعِ الحيوانات الأخرى سلوكه..

في ذلك التاريخ الكبير المجهول حيث يلتقي التاريخ التوراتي المنقول بشكل مغلوط، حول وجود الانسان العاقل الأول، مع التاريخ البعيد في عمق الزمن، عن تحوّل الحيوان الى انسان في وقت زعم فيه ان عملية التطور كانت قد اوصلته الى درجة العقلانية لينفصل نهائياً عن حيوانيته البدائية.. في ذاك التاريخ المجهول حدث انه، كما كان يعتقد قدماء البشر في بلاد حضارة غوبي (قبل ان تصبح صحراء) وبلاد موهنجو دارو وبلاد السومريين والأكاديين، قد حطّ على هذا الكوكب إلٰه حكمة كان متجولاً في الكون لتفقد سير الكائنات فيه.. وعندما رأى إلٰه الحكمة حيواناً أرضياً، مميزاً بشكله وتصرفاته، احتضنه وروَّضه وراح يلقِّنه اصول حياة اخرى غير التي يألفها، وعلّمه اصول البناء وتأسيس المجتمع واصول الزراعة. والتلقين الإلهي معناه انه « نفخ فيه نسمة إلٰهية » هي التي أعلته الى درجة التفكير والتأمل والبصر، أي العقلانية.

وهكذا يكون قد حدث خلق آدم وحوّاء.. أي هكذا تكون قد حدثت عملية فصل الانسان الحيواني عن الحيوان الحيواني.. مع بقاء الانسان حيواناً كاملاً في نشوئه البيولوجي وتصرفاته الطبيعية وتكاثره وبقسم كبير من تصرفاته الغريزية التي طُعِّمت فوقها العقلانية ولا تزال، بصورة مستمرة، تُطعَّم يوميًّا عن طريق التلقين المتواصل الذي لولاه لعاد الانسان حيواناً حيوانياً.

فالقفزة الهائلة التي أبعدت الانسان عن ابناء عمه القردة بعداً شاسعاً، لم تكن على الإطلاق قفزة تطورية حيث ان للتطور معنًى مجازيًّا لا غير أي الانتقال تدريجياً من امكانية الصيرورة الى النشوء البيولوجي الإستطرادي، بين بداية الكائن ونهايته.

فالكائنات سواء الأرضية منها او الكونية تبتدىء اولاً في حال

الصيرورة ثم تتجسّد وتنمو ثم تفنى وتتلاشى. ولكل منها دور مجدّد عند بدء الصيرورة. فالفرقد لن يكون نجماً والنجم لن يكون شمساً والشمس لن تكون مجرّة والمجرة لن تكون الكون الذي نتصوره بانه كل الوجود.. كما ان الذبابة لن تصير عصفوراً ولا العصفور نسراً ولا النسر تمساحاً ولا التمساح قرداً ولا القرد بقرة ولا البقرة حصاناً مطهّما ولا الحصان انساناً يحلم بالأبعاد ويتأمل بالآفاق الجوية والكونية.

الألوهية الكونية ــ والعمالقة

كما ان قصة الألوهية الكونية (واذا كان الكون غير متناهٍ، فهي، في أوضح دليل غير محدّدة وغير مجسّدة وغير مشكّلة ولا متناهية) التي أمسكت بيدها التراب وجعلته طيناً وشكّلته انساناً تنفخ فيه نسمة الحياة ــ والحياة العقلانية ــ ثم تشقّ منه انساناً آخر لكي يعيش الاثنان معاً. هي قصة محض مجازية تهدف الى تقريب مسألة الخلق من اذهان الناس، هذه المجازية يمكن أن تؤدي الى الوهم، والوهم أحد متاهات العقل.

فالعمالقة اذاً بشريات انشأتها الآلهة الكونية في هذه الأرض، « على صورتها ومثالها »، سواء بتلقيح الحيوان البدائي تلقيحاً الهياً او بإحداث عملية تحويل فيزيولوجي بمنتهى العلم الأسمى الذي لن تدركه بشرياتنا الحاضرة.

وقد يكون ان العمالقة جاؤوا من كواكب كونية اخرى ليسكنوا هذه الأرض في وقت كان فيه جوّها، وخلال مئة مليون سنة ونيّف، جوًّا فردوسياً حقيقياً، كما سبق وذكرت ذلك في الفقرات السابقة.

اندثار العمالقة

ماذا تقول التوراة بهذا الخصوص؟

تقول التوراة: « عندما زال الطوفان، خرج نوح واولاده من الفلك، وانتشروا في الأرض. وفي ذاك الزمان كان العمالقة موجودين في الأرض.. بشريات مجيدة، ذات شهرة كبيرة مجلّلة بالحكمة ».

وهذا يعني عند ذوبان الجليد المغطي شمالي الكرة الأرضية بما فيها اوروبا وشمالي آسيا وشمالي الأرض الجديدة، وحدوث الطوفان، كان العمالقة يسكنون الجبال كجبال التيبت وجبال الأندس وطوروس والكاربات وكليمانجارو وجبال الأطلس والقوقاز وغيرها، حيث لا تزال بقاياهم العظمية محفوظة في بعض المغاور (في التيبت، مثلاً) وفي بعض المتاحف (في جزر الخالدات، مثلاً) ـــ أي ما عثر عليه المنقبّون وعلماء الآثار ـــ أما ما لم يعثروا عليه حتى الآن فهو مرهون باسرار الأرض، في جوف الأرض..

والأرض بخيلة بإفشاء اسرارها خوفاً من ان يطّلع عليها الناس إذ يعلمون حينئذ كم قاست البشريات العاقلة من نزواتها وتقلباتها وكم أحرقت من نفوس الناس وأشقت كيانهم منذ عهد العمالقة روّاد الأرض ومروّضيها.. حتى يومنا الراهن.

ولكن.. ما الذي جرى لأجل فناء بشريات العمالقة (الحكماء) وفناء حضاراتهم وتغيير الشروط المناخية والحياتية في الأرض ـــ تغيير لم يوفّر البشريات الباقية التي فقدت حضاراتها الموروثة طوال بضعة آلاف القرون ـــ ودخلت في حياة الارتباك والقنوط

والجهل، الحياة التي سموها خطأً « بدائية » وكانت، بالفعل، انحطاطية؟

فالأبحاث العلمية الجيولوجية، من جهة.. والإكتشافات الأثرية، من جهة ثانية.. وعلم الظاهرات المادية والنفسانية، من جهة ثالثة.. وعلم المنطق الإستنتاجي، من جهة رابعة.. وايحاءات الذاكرة العرقية العقلانية، من جهة خامسة.. جميعها اعترفت بأن هذا الكوكب الأزرق طرأت عليه، خلال القرون البعيدة في القِدم وخلال فترات مختلفة، تغييرات كبرى عقب كوارث كبرى، منها: انحراف الأرض يميناً في دورانها حول الشمس، وهو انحراف اوجد الفصول الجوية الأربعة بعد أن كان للأرض فصل معتدل فردوسي واحد؛ ارتفاع الجبال لأربعين او خمسين مليون سنة خلت؛ ضرب الأرض بذنب غازي لأحد النجوم المذنّبة في مروره على مسافة قريبة من الأرض — نشأ عن ذلك احتراق مناطق كبرى من الأرض وتبخّر بحار داخلية، وبروز صحارى كبرى في القارات الأميركية والأفريقية والآسيوية والأوسترالية —؟ ابتعاد القمر عن الأرض، بعد ان كان قريباً منها طوال خمسمائة قرن، ممّا كان يعتبره الأقدمون وجود شمسين حول الأرض، ويعتقدون ان الأرض في ذاك الوقت لم يكن لها ليل بل نهار واحد طوله خمسون الف سنة. وفي ابتعاد القمر عن الأرض الى المكان الذي يدور فيه الآن قد تراجعت، انحداراً مياه المحيطات ثلاثة او اربعة آلاف من الأمتار ممّا غمر قارات كاملة تحت المياه، كقارة الأطلنتيد، في المحيط الأطلسي وقارة « مو » او اللاموريين، في جنوبي المحيط الهادىء، وممّا احدث شروخاً كبيرة في الأرض بعد انحسار مياه البحار. ودليل هذه الحقيقة التاريخية تعطيه التوراة إذ يقول بان أحد احفاد نوح أُعطي اسم « فلق » تذكيراً بالفلق الأرضي او الشرخِ الكبير الذي نشأ بعد انحسار

« مياه الطوفان »، أي تراجع مياه المحيطات. مقولة التوراة هنا تتوافق مع نظريات العالم الحديث.

ولا ننسى العصور الجليدية الكبرى وعصور ذوبان الثلوج التي حدثت فيها طوفانات كثيرة مهلكة كان آخرها طوفان نوح المعروف في اخبار قسم كبير من شعوب الأرض — أخبار رددتها الشعوب كما لو كانت الكارثة، او الكوارث، عقاباً للناس على « الضلال ».

إنحطاط العمالقة وفناؤهم

ان معظم بشريات العمالقة، أبناء الآلهة ومخلوقون على صورتهم ومثالهم، قد اندثروا وغاب معهم العلم الأكمل والحكمة العليا بسبب التقلبات والكوارث المذكورة.. إلّا انه قد نجا قسم صغير منهم متأثرين نفسانياً بأهوال الكوارث وتغيير المناخات وفقدان حطامهم الحضاري، حيث انقلبت، في غالب الأحيان، تصرفاتهم الحكيمة رأساً على عقب.

إلّا انه، في بعض الأحيان، ظلت جماعات من العمالقة تحكم الشعوب « الصغيرة » بحكمة وتعلمها فنون الزراعة وتشييد الهياكل وتنظيم هرمية المسؤوليات في المجتمعات. فالهياكل القديمة لم يكن لها سقوف وابواب ذوات عتبات عليا او يكون في بعض الأحيان علوّ الأبواب يزيد عن الثمانية او العشرة امتار لكي يدخلها العمالقة دون انزعاج. ان الأبواب العالية لقصور أمراء هذا العالم، ومنها الباب العالي (عشرون متراً) لأحد قصور السلاطين العثمانيين في اسطنبول، هي (وقد لا يكون اصحابها على علم بذلك) للتذكير بمساكن وهياكل العمالقة الآلهة، في الأزمنة القديمة.

ولكونهم عمالقة، وبصفتهم حكماء، وعلى اعلى مستوى من الحكمة يمكن لنا نحن ان نتصوره، فقد عبدتهم بشرياتنا « الصغيرة » واقامت لهم الهياكل حيث يقدم لهم البخور وتوجه اليهم الصلوات والمطالب.

« هاليلويا »، العبارة الأكادية البابلية معناها: هلّلوا للإله « آيا »، إله الحكمة الأرضي، وهو أحد الآلهة الذين اسّسوا احدى الحضارات البشرية المجيدة وعلّموا الناس الحكمة التي في رأسها « مخافة الله »، أي التسليم للآلهة في مختلف الأمور التي لا تقع تحت تعليل العقل الإنساني.

ان الشروط الكونية والأرضية التي اشرتُ اليها.. وبلوغ الدورة البيولوجيـة، لدى العمالقة الحكماء، أحطّ درجاتها واسوأها، في العد العكسي التنازلي للحركة البيولوجية الكونية.. وشيخوخة النوع البشري العملاق الذي كان قد مرّ عليه مائة مليون سنة ونيف.. وشعور العمالقة العقلاني الداخلي بنهاية دورهم الأرضي.. وصدمة الكوارث الكبرى، التي افقدتهم حطامهم الحضاري... كل ذلك أدخل بشريات العمالقة في طور الإنحطاط النفساني والحياتي الى حدّ ان بعض جماعات العمالقة منها مَن انحطّ وراح يتخبط في جحيم الجنون والإنفراد، ومنها مَن راح يأكل افراد « صغار » البشر ويقتات بلحومهم دون تمييز بينها وبين لحوم سائر الحيوانات.

وبينما كانت جماعة من العمالقة يسمون بالسكلوبيين يشيدون المباني والهياكل المفرطة في الضخامة والروعة، قال لنا « أوليس » (أو أوليسّوس) البطل والبحّار الإغريقي بأنه تعرف على احدهم في احدى الجزر كان يسكن المغارة ويسدّ ليلاً مدخلها بقطعة من جبل ثقلها عشرات الأطنان؟ وكان هذا السكلوبي يأكل لحوم البشر الى جانب لحوم الأغنام.. إلا ان البحّار الإغريقي تكلم

عن سكلوبي آخر كان عالماً بالغيب ينبىء بالأحداث الكبرى قبل وقوعها وانه كان حكيماً على اعلى درجات الحكمة. مثله مثل هيراقليس العملاق الذي قضى على حكم المرأة بالقضاء على « هيبوليت » الإلهة الأم.. والعملاق أشيل الذي قتل « بنتيزيليه » إلهة أم أخرى.. كما ان هيراقليس قضى على الملك العملاق ديوميد ملك طراكيا القديمة الذي كان يُطعم احصنته لحوم البشر.

واذا ذكرنا العملاق عوج بن عناق سليل جماعة العناقيم (العمالقة، أصحاب الأعناق العالية) في سيناء؛ وجالوت ملك جماعة العماليقيم في شرقي فلسطين؟ وعمالقة الغوانتشيه في جزر الخالدات في غربي القارة الافريقية.. نرى ان هؤلاء البقايا ــ ومنهم الحكيم الطيب كما ومنهم المنحط العاطل ــ كانوا لا يزالون، عقب اندثار معظم سلالاتهم الإلهية المجيدة، يحكمون، رغم قلتهم، شعوب الأرض المنحدرة منهم والمتحضرة على ايديهم.

ونعرف من اماكنهم: منطقة كبرى واقعة اليوم بين تانزانيا وبوروندي واوغاندا وكينيا (افريقيا) والمنطقة المنطوية على اجزاء من بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا وغربي تركيا وجنوبيها (اوروبا) وشرقي فلسطين وغربي جنوبي الجزيرة العربية وارض الكنعانيين (الشرق الأوسط) ومناطق القوقاز (روسيا) والتيبت (سفوح جبال هملايا) وضفاف بحيرة تيتيكاكا في بلاد البيرو (اميركا الجنوبية)، وغيرها.

العمالقة آلهة ـــ والعمالقة شياطين

عندما كان الجبابرة في اعلى ذُرى الحكمة والعقل والقوة كانت بشرياتنا « الصغيرة » تعبدهم وتعتقد بأنهم قادرون على كل شيء. انما، عندما اعتراهم الإنحطاط العقلي وتجندلت معنوياتهم وقدراتهم البدنية بسبب فقدان معظم أسس حضاراتهم العملاقة، راحت بشرياتنا الصغيرة: من جهة تخافهم وتتحاشى شرورهم؛ ومن جهة اخرى تعتبرهم شياطين. وشعوبنا « الصغيرة » ولاعتمادها على السلاح ـــ في حين ان العمالقة كانوا قد اصبحوا بُسطاء وعُذّلاً ـــ راحت تتعقب افرادهم القلائل اينما وجدوا وتعمل فيهم السهام والنبال. ان آخر مجزرة حدثت للعمالقة كانت في جزر الكناري حيث كان العمالقة « الغوانتشيه » قد التجأوا وحفروا المغاور الكبيرة غير ذات ابواب. وفي اعتقادي ان قامتهم العالية كانت احد اسباب خوف الناس منهم، بالرغم من انهم كانوا قد اصبحوا بُسطاء اغبياء لا يأتي عنهم أي أذى. ولتأكد الناس من انهم عاجزين جسميًّا، راح « الأقزام » ومن بعيد لبعيد، يقتنصون العمالقة الواحد بعد الآخر.. حتى قضوا عليهم تماماً في تلك الربوع.

فعندما كان العمالقة ـــ ابناء الآلهة ـــ في ذروة الحكمة والجبروت، يغمرون البشريات « الصغيرة » بالخيرات ويوجّهون مصائر الناس في سبل الايمان والأمل والقبول بالحياة كما هي مفروضة من علٍ، أي من الآلهة.. اعتبرهم الناس آلهة وقدموا لهم القرابين.

.. تلك كانت نهاية احد الأنواع المجيدة من البشر.

بعد عهد العمالقة انتشرت الأديان

وبعد اندثار سلالات الجبابرة.. راح الناس يعتبرونهم شياطين الأرض يأتون بالبلى ويزرعون الردى ويوسوسون بالشرّ ــ وهم من ذلك ابرياء.

إلّا أن الكثيرين من احفادهم وابناء احفادهم ــ أبناء بنات الناس ــ قد تنبّهوا الى الفراغ المعنوي والإجتماعي الذي تركه الجبابرة في غيابهم عن ساحة الوجود. فراح الأذكياء منهم يعملون على احياء تقليد حكم العمالقة الآلهة، بتنصيب أنفسهم نوّاباً (Vicaires) للآلهة الغائبين (وكانوا قد قتلوا الصالحين الحكماء منهم مثل البلهاء)، وتعليم الناس مزاولة عبادة الآلهة وتقديم القرابين لهم. وقد عُرِفَ هؤلاء «الأذكياء» بكهنة الهياكل الذين سيطروا على الشعوب باسم الألوهيات وراحوا يأكلون قرابين الآلهة باسم الآلهة. والتقاليد تقول ان اوائل الكهنة اسلافهم كانوا خدمة الهياكل ــ وليس اسيادها ــ في عهد العمالقة الآلهة الصالحين.

* ذاك كان عهد العمالقة الحكماء
* هكذا كان انحطاطهم.. وفناؤهم
* تلك هي حكاية الآلهة الأرضيين الذين نفخوا في الحيوان الانساني نسمة العقلانية.. ثم تواروا
* تلك هي الظاهرات النفسانية والتاريخية.. وتلك هي الأديان والمعتقدات التي تذكرنا بهم وبعظمتهم وبفضلهم على حضارتنا الموروثة بشكل تمثيلي مشوّه) للحقائق...

ان هذا السياق التكويني والحضاري و«التطوّري» النازل الينا منذ اعرق العهود ــ ومعه، ملازماً له، التغيير المتحكم بدورات

الحياة البيولوجية الأرضية والخاضع للتقلبات الكونية وللتقلبات الخاصة بهذا الكوكب الذي كتبت لنا الحياة عليه ــ لعلّه أصدق مما ورد بهذا الخصوص في « سفر التكوين » التوراتي الذي لم ينقل الينا بصدق واخلاص ومنطق اخبار الشعوب والحكماء القدماء طبقاً لما حدثت الأحداث.

١ ــ فنحن اذاً ابناء الآلهة، في الدرجة الثانية.

٢ ــ وان هياكلنا وعباداتنا ليس لنا فيها اية فائدة سوى تذكُّر اولئك الآلهة العلماء الذين سلخونا عن العالم الحيواني الغريزي، الناظر دوماً الى التراب وجعلونا كائنات عقلانية اسمى، تفكّر في الأسباب والمسببات، وتنظر الى جميع الآفاق، وتتأمل في الوراء القصيّ وفي الأمام الأقصى، وتفتخر خاصة على كونها سليلة الآلهة الحكماء ــ وإن كانت تصرفات الناس بعيدة كل البعد عمّا تأمَّله لنا الآلهة يومَ جعلونا على صورتهم ومثالهم.

انحطاط الحضارات

كان لإنحطاط العمالقة وفنائهم بعد ذلك ــ وهم الذين كانوا مرشدي الشعوب ومحضّريها ــ أثره البالغ على حضارات البشر.

وإن ما عمله اذكياء البشر من تمثيلهم للآلهة ووضع الرموز المشيرة اليهم ومحاولة إبقاء ظلهم مخيِّماً على الحضارات الباقية، في بعض تقاليدها وتصرفاتها، وتقليدهم لهم في حمل المسؤوليات العامة والاهتمام بمصائر الناس، وبتأليههم أنفسهم كذباً ونفاقاً كما لو كان العمالقة الحكماء أقاموهم نواباً عنهم.. كل ذلك لم يُفِد الحضارات الشيء الكثير، بل عمل على مرافقة الإنحطاط

تدريجيًّا؛ الى أن اندثرت الحضارات وزالت كل معالمها، وغابت عنها الحكمة الصحيحة وفُقِد لديها العلم الواسع، وادركت مستويات معيشية صعبة وفقيرة حيث التجأت الى صنع الأدوات الحجرية لتساعدها هذه على التمكّن من التصرف بلقمة العيش.. بعدما كان العيش سهلاً وغنيًّا ومجيداً في عهد العمالقة الآلهة المحضّرين.

وعادت البشريات القهقرى طوال آلاف القرون، لا تبني ولا تزرع ولا تصنع.. شأنها في المعيشة شأن الحيوانات الأرضية الأخرى، اللهمّ إلا ذاك الوميض العقلاني الباقي في حنايا الناس، منعشاً فيهم بعض التذكارات الخفية المرتعشة في خفايا نفوسهم، تذكارات تشعرهم بأنهم يختلفون عن الحيوانات الأرضية.

العصور الحجرية نهاية حضارات

ولعلّ ذاك الوميض العقلاني المتبقي لدى البشريات المنحطة هو الذي عاد فنشّط بعض الأفراد البشرية الذين كان ما يزال « العنصر الوراثي » يعمل لديهم بصورة اقوى واكثر وعياً من غيرهم.. وذلك بعد المرور بتجارب قاسية.

فعندما انحطّت البشريات الى درجة الاعتماد على الحجر لتوفير ادوات عملها ومعيشتها اليومية كانت هذه البشريات قد أضاعت فعلاً حطامها الحضاري وتردّت اوضاعها النفسانية والمعيشية والإجتماعية.

ولم تكن العصور الحجرية التي عاشت في ظلالها البشريات طوال ثلاثة ملايين سنة، حتى الألف العاشر قبل يومنا الراهن،

عصور بدائية الحياة بل عصور نهاية دورة بيولوجية ــ وبالنسبة للانسان، نهاية دورة حضارية. وقد عمل على ادراك هذه النهاية استهلاك الزمن للعنصر العقلاني، بمساعدة التقلبات والكوارث الأرضية والكونية.

.. ذاك هو اعتقادي في اسباب العصر الحجري ومعانيه.

ــ أخطاء تفسير عند موسى والتوراتيين.
ــ أخطاء تصوّر ووهم عند داروين والطبيعيين.

ان موسى الذي كان يحمل في جُعبته نتفاً من أخبار الأقدمين ومنها رواية خلق آدم وحواء في فردوس ارضي ضمن إطار يجمع صورة التفاحة الى شجرة خير وشرّ وشيطان مدسوس تحت شكل حية، وغير ذلك.. قد استنبط، جهلاً، رواية لم يكن يفهم رموزها في الأساس ولم يتعمق في فكّ الرموز الواقعة بين يديه لا عن طريق العلم (المنطق والتاريخ والبيولوجيا) ولا عن طريق الوحي لأنه لم يكن خليقاً بذلك مثلما نسبت اليه رواية « المكالمة » مع الله، إلٰه الكون. وجاء بعده الكتبة العبرانيون الذين ضمُّوا معلومات موسى المغلوطة الى نتف اخبار حضارات اخرى، جعلوا منها رواية التكوين المعروفة التي ليست في الواقع سوى سلسلة انحطاطات كبرى اعترت بشريات كانت مجيدة في ماضيها البعيد، فاعتبروها هم بدايات للتكوين ولنشوء الأشياء والكائنات العقلانية.

وهكذا عمل داروين حين مرّ في بعض الجزر في جنوبي القارة الأميركية حيث رأى اقواماً بائسة تعيش منعزلة وتتحاشى الاختلاط مع « المتحضرين »، وهي في وضع حياتي قريب جداً من وضع القرود في المجاهل الأفريقية.

لقد تصوّر داروين ان حالة اولئك الناس هي الحالة البدائية التي انطلق منها اول انسان منفصل عن القرود ووصل، في اوروبا وآسيا، الى درجة الرقي الحضاري الذي كان داروين يعرفه وكان ماثلاً في مخيلته كاحدى درجات التطور الكبرى بالقياس الى ما كان ماثلاً امام عينيه ممّا ظنّه بداية لنشوء البشر، بعد عبور الجسر الفاصل بين الناس والقرود.

النظرية الداروينية

والمضحك المثير للسخرية هو تلك الصورة التي يعطيها بعض العلماء الطبيعيين الذين يأبون إلّا ان يروا في الناس (البشريات الحاضرة) قروداً تطورت تدريجياً واستنبطت النار بالإحتكاك واقتبست فجأة صورة لحياة الجماعة وبناء الخيام والتكاثر والتعاضد في مجتمع واحد بغرض الدفاع المشترك والتفكير المشترك حول سُبُل العيش المشترك.

ان البشريات الحيوانية الماضية قد جرى تعديل جذري لتصرفاتها التي انقلبت من غريزية ارضية الى عقلانية كونية « بتزاوج بناتها مع ابناء الآلهة ».

وهذا التزاوج، الذي تتكلم عنه التوراة، قد يكون تزاوجاً فعلياً بمعنى النكاح؟ او قد يكون « تطعيماً » او تدخلاً علمياً طبيًّا باسمى درجات المعرفة وتقنيّة الآلهة.

ان الآلهة (والعمالقة ابناؤهم) هم الذين علّموا البشريات استعمال النار.. وهل ننسى ان كبير الآلهة زاوس (داوُس، الذي لا يزال اسمه مستعملاً في اللغات اللاتينية للدلالة على ما نسميه

في اللغات الشرقية إيلوه أو الله) عاقب العملاق الإله « بروميتيه » لأنه اعطى النار للبشريات « الصغيرة »، أي علّمها استخراجها واستعمالها.

فبشرياتنا الصغيرة اصبحت عقلانية بفضل تدخل الآلهة تدخلاً بيولوجياً علميًّا. وهذا التدخل كان عن طريق تطعيم الحيوانية البدائية بالعقلانية المستحدثة.

تلك صورة أصحّ من صورة التوراة القائلة بصنع الانسان الأول عن يد الله الذي اخذ من طين الأرض وجعل له شكلاً معيناً ونفخ فيه نسمة الهية وجعله على صورته ومثاله.

الحيوانية الدائمة

والتلقين (التلقيح) الواجب الإستمرار

بالرغم من عقلانية الآلهة.. لا يزال الانسان يميل الى حيوانيته الأصلية في معظم تصرفاته الانسانية. ولا يزال الانسان مرتبطاً بهذه الحيوانية ويعود اليها والى غريزتها كلما اقتضت ذلك مصلحته الحيوية الشخصية.

ثم ان التلقيح (او التطعيم) الذي فصل الانسان جنساً ونوعاً عن سائر الحيوانات يجب ان يستمر دوماً.. وإلّا عاد الانسان حيواناً بهيميًّا. ان هذا التلقيح او التطعيم يستمرّ في طريقة واحدة وحيدة، هي التلقين. فالتلقين هو الواقع اليومي الذي يبرز باستمرار انسانية الانسان.

فالمخلوق الانساني، أي الطفل أو صغير الانسان، إن لم يُعمَل،

منذ ولادته، على تلقينه كلمةً كلمة، وإسماً إسماً، وصورةً صورة، ومعنًى معنًى، وفكرةً فكرة.. وإذا لم يشرح له الإرتباط بين صورة وصورة وفكرة وفكرة، منذ ترعرعه والى أن يكبر.. تعود الحيوانية فيه فترجعه الى مستواها وارجائها وأجوائها.. ولا يصير انساناً عقلانياً طليق التفكير والتصرف، ذي قدرة على التحليل والمنطق والإستنتاج وعلى الإستنباط والإبداع، كما عرفناه في التاريخ وكما نعرفه اليوم.

فلو كانت العقلانية تطورية لما احتاجت الى التطعيم او التلقيح اليومي المستمرّ، أي الى التلقين الدائم الذي يجعل من الانسان إنساناً وهذا ما لم يفهمه « التطوريون » لأنه منطق واقع، ومنطق ظاهرات نفسانية ومنطق وجود غريب. والمنطق، كالحكمة، موجود، للذين فقدوه، في السماء ويجب الذهاب اليها او إستيحاؤها للمجيء به الى عقول الناس، أي الى تفكيرهم العقلاني.

ما هي ومَن هي بشرياتنا الحاضرة؟

ان هذا الموضوع المستند الى ركائز بيولوجية وتاريخية ومنطقية يُظهر بجلاء أن بشرياتنا الحاضرة هي حفيدة ابناء الآلهة.. أي وليدة تدخل الآلهة قديماً (مئات الوف السنين الى الوراء، أو ملايين على الأرجح) في النظام البيولوجي لبعض الحيوانات الأرضية حيث اقامت الآلهة، من نوع معيّن منها، تجربة تحسين جنس او إعلاء الى درجة نفسانية عقلانية اعلى من النفسيات الأرضية المعروفة حينئذ (Psychisme).

والعملية الإلهية يصحّ أن يقال صحّت جزئياً بالنسبة للحيوان الانساني؛ ولم تصح بالنسبة للقرود كالشمبنزيه والغوريلا والأورانغ

اوتانغ والجيبون ــ اقرب الحيوانات شكلاً الى الانسان ــ. فهذه الحيوانات التي استقامت قامتها وظهرت على تكوينها لمحة ضعيفة جداً من الشكل الانساني.. ظلت تنظر الى التراب وطريقتها في الحياة ظلت الأكل والشرب والنكاح والنوم.. ولا شيء غير ذلك.

أي ان العملية الإلهية، بالنسبة للانسان، كانت على شقين: الأولى تغيير الشكل وكيفية التصرف والتفكير في الأمس والغد، أي في الوراء والأمام والعمق والآفاق البعيدة، ومحاولة الإبداع لتغيير النسق المعيشي، والإقتداء بفنّ الطبيعة وجمالها بالتجميل والتفنن وإنشاء الحضارات لإظهار بصمات القدرة العقلانية الإلهية والإعتراف بها، والبحث عن الأسباب والمسببات، وغير ذلك.. والثانية هي تلقين كل ذلك همساً وقدوةً وصوتاً داوياً الى مواليد البشر، أي تلقينه منذ الولادة حتى الترعرع الثابت المثبت لانسانية الانسان. فلولا هذا التلقين المستمرّ لما استطاعت الكائنات البشرية أن تبرهن عن انسانيتها ــ وهذا أمر تعترف به التجارب التي أُجريت وتُجرى وأعطت رأياً صريحاً في الموضوع.

فناموس الرجوع الدائم (L'éternel retour)، إذ يطرح نظرية داروين والطبيعيين في سلة المهملات، كما لو كانت فكرة طائشة ليس لها مرتكز في منطق الواقعيات، يقول في الوقت عينه بان الانسان تركيبة غير طبيعية. فمواليد جميع الحيوانات والحشرات، منذ الساعة الأولى او الساعات القليلة الأولى لظهورها على وجه الأرض، تجيء حاملة معها (منذ اللحظات الأولى، بل قد يكون ذلك منذ اول لحظة في تصورها في الأرحام او في البيوض) كل حطامها الحيوي في التصرف ومعرفة الصالح من الطالح والشعور بالأمان والخطر والخير والشرّ، والجري بعيداً لإلتقاط

لقمة العيش. اما الانسان فهو غريب عن كل هذا؛ كما انه عند ولادته، لا يحمل اي شيء من هذا الحطام. انه يولد بهيميًّا اكثر من البهائم.

واستناداً الى هذه الواقعيات التي يجهلها الطبيعيون يصحّ القول بان الانسان غريب فعلاً عن الأرض.. أي أن شيئاً هاماً فيه او شطراً منه، هو غير ارضي.

وهنا يتضح التدخل الإلهي الذي حصل لتحويل الحيوان الى إنسان. ويتضح ايضاً النقص في ان الحيوان الأرضي لم يصبح انساناً كاملاً ليتصرّف على شاكلة الآلهة ومثالهم.

أي أن الانسان الأرضي هو جزئياً فقط انسان بالمعنى الانساني العقلاني.

فالتلقين يحمل دائماً نَسَماً من نسمات الآلهة المبدعة المحضّرة. وشعوراً بهذا النَسَم المرشد الموجّه من عمق أعماق التركيبة العقلانية، راحَ مَن سماهم التاريخ قدَماء الحكماء يعملون، من جهة، على اعادة عبادة الآلهة (بالرغم من غياب الآلهة)، مدَّعين انهم هم أمَناؤهم والمحافظون على رسالتهم الإلهية والمكرّمون لذكراهم والمخلّدون لتعاليمهم.. ومن جهة اخرى، على تنظيم قواعد المجتمعات ووضع القوانين وتكوين حضارات يحاولون بها تقليد الحضارات الأولى الإلهية المجيدة.

هل هذا العصر عصر العلم بالفعل؟

اذا كان النسيان من فرائض الطبيعة الدارجة على تبديل دور بدور آخر ومحو الدور السابق لتسجيل الدور اللاحق محلّه.. واذا كانت الطبيعة جعلت هذا النسيان احدى ميزات التكوينة الانسانية.. فان ذاكرتنا الوراثية، الى جانب فضوليتنا في التعرف الى كل شيء (وهذه الفضولية فينا هي في الأساس البعيد ميلنا الإلهي الى المعرفة)، قد قادتنا، على طريق آثار الأقدمين الباقية في الأرض؛ وأوصلتنا الى التثبُّت من ان العلم، الذي كان من صفات الآلهة ونفخوه في العمالقة ابنائهم، كان في القرون البعيدة البعيدة في اعلى ذراه وفي اسمى درجات كماله.

حافظة التاريخ والآثار في الأرض

فاذا كان عصرنا الراهن يتباهى بصنع الأزياء المتقدمة على ستر الأفريقيين ولباس البدو الرحّل، ويعتقد انها دليل حضاري ولم يكن مثيلها موجوداً ومعروفاً في الأرض لخمسة او ستة آلاف سنة ماضية.. فعلم الآثار والتاريخ يطلعنا على ان جثث الرجال التي عثروا عليها في أحد اماكن التنقيب الأُثري في روسيا كانت ترتدي السروال والقميص على شاكلة ما يلبسه شباب العصر الذين يتبخترون بزيهم « الحضاري » في الشانزيليزيه في باريس او في ساحات لندن وشوارع نيويورك ومكسيكو ومدريد وريو ده جانيرو والقاهرة.. ان اولئك الرجال كانوا قد دُفنوا في تلك المنطقة الأثرية لاثني عشر الف سنة قبل يومنا الراهن.

واذا كنا اليوم « نفتخر » باننا فسّخنا الذرّة واستعملنا الطاقة النووية (واكثر استعمالها مخصّص لتدمير الحضارات وقتل البشر) بطريقة لم نكن نعرفها من قبل (أو بالأحرى كانت حضاراتنا

الراهنة تجهلها).. فهل نسينا ان الكثيرين منّا كانوا قد سمعوا أصداء أنباء أخبرتهم ان مدناً وحضارات كاملة كانت تغصُّ بالخلائق ـــ كسادوم وعاموره وعاد وثمود وأرَمُ « ذات العماد » (أرَمُ: الرَع مو او إله الشمس لقارة مو) قد أُفنيت بواسطة الطاقة النووية منها لعشرين الف سنة ومنها لخمسين الف سنة الى الوراء؟

العلم اليوم: مجموعة نتف

من العلم الكبير المفقود

واذا ذُهلنا « لتقدمَ » الطب في معالجة الأمراض واكتشافاته في عالم الجراثيم المجهرية وعالم التركيبات الكيميائية والبيولوجية.. ولأن البشر، بفضل تطور الطب ـــ أدوات ووسائل ـــ مائلون الى التعمير اكثر فأكثر، والى الارتياح الى الهناء في العيش ارتياحاً لم يكن مألوفاً من قبل.. فان ذهولنا نابع من جهلنا التام لماضي الكائنات العقلانية السحيق.

وفي وضعنا الراهن.. وأمام سكرتنا بمكتسبات العلم الذي ننعت به هذا العصر، فلا يمثل في ذاكرتنا ـــ بالرغم من ان القضية هي قضية كل يوم ولا يجب ان تُنسى ـــ ان الوف بعثاتنا الطبية العلمية تجوب باستمرار بقاع جزر المحيط الهادىء وجبال التيبت وهيمالايا وادغال القارة الأميركية في المناطق المنعزلة عن الحضارات، باحثة عن الوف الأعشاب وعن اولئك الناس المنعزلين لكي يفيدوهم عن ميزاتها العجائبية لأنها هي الأعشاب التى خلقتها الآلهة لمعالجة جميع امراض البشر.

إن أذكياء الناس من حضاراتنا الراهنة ـــ بواسطة وميض النور

المعرفي الموروث ـــ كانوا على علم بكل ذلك. ولخمسة آلاف سنة للوراء كان الناس في بلاد الهند والصين وبلاد الاكاديين والسومريين والقوقاز والأطلس يقدسون الأعشاب ويقيمون لكل واحدة منها صلاة خاصّة بها ـــ تماماً كما يفعل المسيحيون للقديسين و« اولياء الله » ـــ، وفي ضميرهم ان ايدي الآلهة وضعت الأعشاب في الأرض لإقصاء الردى والمصائب البدنية عنهم وعن ابنائهم.

ومن الغباوة الكبرى أن يعتقد أذكياء اليوم ان هذه الأعشاب وُجدت صدفة ليهتدي اليها الطب صدفةً ولتداوي امراض البشر صدفةً!

.. تلك هي نظريتي في هذا الواقع البيولوجي، ايها الطبيعيون واللاهوتيون.

العلم الراهن إعادة بناء هيكل العلم الذي هدمه الزمن خلال الكوارث الكونية.

إن علمنا الراهن ليس سوى نتف من العلم الكامل الذي كانت تحمله سلالات سبقتنا في هذا الكوكب، ولا نزال نعيش بفضل عنايتها المستمرة، وإن كانت غير منظورة.

وإن الحكماء من بشرياتنا يحاولون، منذ اقدم العصور المعروفة لدينا، جمع نتف العلم المتناثرة في الأرض وفي الذاكرة، بالتجربة والاستيحاء، ليعودوا ويكوّنوا العلم الكامل.

إن تفتّح العلم في هذا العصر ليس تطوراً بمعنى انه بداية لدى الناس « البدائيين » وأنه تكوّن تدريجياً وصعوداً من ذاك التاريخ الموهوم حتى ايامنا هذه.

ومثلما هو تفتُّح الفكر الانساني بقفزته، خلال قرن واحد، من المجهولات والغوامض الكثيرة الى المعارف والمعلومات الكثيرة.. كذا هو العلم: تفتح يستند الى همسات صاعدة من اعماق العقل الباطني الانساني الذي لا يزال مرتبطاً بالعقلانية الإلهية الكونية، يُضاف اليها تجارب يقوم بها مَن نصفُهم « بالعباقرة » وهم قد لا يدرون انهم يعيدون بناء هيكل العلم الأكبر ليس فقط بجميع رموزه بل ايضاً بكل قوته وتحقيقاته. ليس اذاً هناك أي تطوُّر بالمعنى المقصود، بل رجوع الى الينابيع واستيحاء للماضي. أما اذا كانت كلمة « تطور » تعني التقدم في عمل الرجوع الى الينابيع.. فلا بأس من استعمال الكلمة لتسهيل فهم الموضوع على عامة البشريين.

ايليا (الياس)النبي وإلٰه جبل حوريب: من رواد الكون الإلهيين. جاؤوا هذا الكوكب ثم رحلوا عنه.

وإذا كنا نفاخر بان علماءَنا توصّلوا الى إنزال رائدي فضاء على سطح القمر — رفيق الأرض والمنير لعتمات لياليها — فلا تزال شعوب من بشرياتنا الحاضرة او المنقرضة في الأمس القريب، كالاستيك والاولميك والانكا والأنسكا وقدماء الفراعنة (وجرياً على تقاليدهم لا يزال المسيحيون ينتظرون رجوع المسيح والمسلمون رجوع المهدي) تنتظر عودة آلهة كونيين دلتهم تقاليدهم العريقة على مجيئهم الى الأرض في الماضي السحيق. وقد تكون تلك العودة التاريخية للمرة الثانية او الخامسة او العاشرة!

وليست بعيدة عنا التوارة التي تروي قصّتين: الواحدة تعود الى ايليا (الياس) النبي الذي، بعد إتمام رسالته في الأرض، صعد

الى « مركبته النارية » متوجهاً بها نحو النجوم. ان ايليا لم يترك تلميذه (حيث انه يفترض أن يكون قد اسّس في الأرض مدرسة تحضيرية) يقترب من مركبته وقت الإقلاع. قد يكون ايليا واحداً من عشرات روّاد الكون الذين جاؤوا الى هذا الكوكب متفقدين ومصلحين ومحضّرين.. والأخرى تعود الى إله جبل حوريب في سيناء حيث حطّ هناك بمركبته النارية. انه الإله الذي قيل انه ثقّف موسى وعلّمه قيادة المجتمع وسلمه القانون الأخلاقي الإجتماعي المعروف « بالوصايا العشر ». ان هذا الإله قد همس لموسى عدم الاقتراب من المكان الذي حطّ فيه وعدم النظر في اتجاهه لئلا يعمى ويحترق بالإشعاعات المنبثّة عن المركبة النارية المذكورة.

الياس أو « هيليوس » معناه الشمس (الكلمة اغريقية، حيث كانت لغة الإغريق لغة الثقافة والعلم في الشرق والغرب في تلك العصور). وهذا ـــ بالمعنى التحليلي والتاريخي للكلام، وحسب تعليلي لمنطق الظاهرات الكونية والتاريخية ولمقارنتها ـــ يعني ان هذا الرائد الكوني كان قد أتى من مناطق النظام الشمسي سواء من المريخ أم من الزُهَرة أو عطارد أو من كوكب المشتري العملاق أو من أحد أقماره الستة عشر أو من ألفا الواقعة في برج الرامح أو من سيريوس الكائنة في برج الكلب الأكبر أو من أي كوكب آخر في مجاهل غيمة « اندروميد » السديمية المعروفة؛ أو من « بيتا » (Beta pietoris) في نظام شمسي قائم في مجرة تبعد عن الأرض بمقدار خمسين مليون سنة ضوئية.. او من غيرها.

أبناء آدم ابناء آلهة

وفي احد الكتب الموجودة قديماً لدى العبرانيين (مجموعة أخبار بشريات قديمة مندثرة)، قيل ان آدم عملاق من بشريات كونية تختلف عقلانياً عن بشريات هذا الكوكب، جاء به احد الآلهة من أحد الكواكب الى هذه الأرض لإحداث عمليات تلقيح وتحويل. وما الضلع الذي قيل في التوراة ان « الله انتزعه من بين أضلعه » سوى عضو التناسل الآدمي الذي زجّه آدم في فرج احدى « ربات الحيوانات » (une amazone) لتنتج له بعد ذلك: ولدها الأول (قايين) الشرس المسيطرة عليه طباعه الحيوانية؛ وولدها الثاني (هابيل) البسيط الضائع بين الحيوانية والعقلانية وبين جنس الذكر وجنس الأنثى؛ وولدها الثالث (شيت)، وهو الذي، في اقتباسه في رحم أمّه وفي تكوّنه وفي ولادته، سيطرت عليه الطبيعة الإلهية. فيُسمّى بعدئذ إلٰهاً. وابناء شيت ابن العملاق آدم، الى جانب نتائج « تلقيحات » اخرى من جانب آدم، هم الذين فيما بعد تزاوجوا مع بنات الناس واعطوا السلالات البشرية المعروفة في التاريخ. كما انه يصح افتراض كون عمالقة آخرين قد قاموا بمثل عملية آدم أي نكاح إناث أخريات.

وأخبار القبالى، حسب العبرانيين، تقول ان آدم جاء من كوكب بعيد اسمه « أدما » (القبالى: كانت تعني لأولئك العبرانيين شعوباً عاشت واندثرت لأربعة او خمسة آلاف سنة الى الوراء ــ شعوب تعود الى تاريخ قديم جداً قد امّحى من ذاكرة الناس ومن آثارهم المعروفة، أي ما نسميه نحن « ما قبل التاريخ » (La Primhistoire.

أي ان « ما قبل التاريخ » هذا يشمل حدث التكوين العقلاني نزولاً من فكرة الرجل الأول (آدم مثلا، ولكن، وفاقاً لحقيقة

تختلف عن رواية التوراة) أي ممّا يقرب من مائة وخمسين مليون سنة عاشتها بشريات عملاقة في منتهى العقلانية والحضارة، أدَّت بها نهاية دورة وجودية حتمية الى الإنحلال والإندثار.. حتى وصل الزمن بذاك التاريخ الطويل الى فناء آخر الحضارات الوريثة لحضارات العمالقة الحكماء: في بلاد غوبي (الصحراء الآسيوية المعروفة اليوم) وبلاد الهيبربوريين (Hyperboréens)، وقارة الأطلنتيد المسجلة احداثها في سجلات كهنة الفراعنة في مصر وكهنة الريشي في معابد وأديار الهند القديمة، وقارة مُو (Mu) او اللاموريين (Lémurie). وبصدد هذه الأخيرة، توصّل البحاثة الكبير جايمس شارشوارد، (James Churchward)، بالتعاون مع بعض كهنة الهنود، الى ترجمة نصّ قديم بلغة ميتة، يعود اليها. ان هذه القارة قد تكون اندثرت لخمسة عشر الف او لعشرين الف سنة الى الوراء.. كما أن الأبجدية الإغريقية والأبجدية الآرامية القريبتين في اللفظ، عند تشريح الفاظ حروفها نطقاً ولفظاً يعطي مجموع منطوقها الصوتي رسالة تركها الناجون من كارثة قارة مُو (ولعلّ أرَمُ ذات العماد كانت عاصمتها أو احدى كبريات مدنها) يعبرون بواسطتها (وطريقتها نوع من « الشيفرة » التي يعرفها الناس في عصرنا) عن كيفية اندثار قارتهم اندثاراً تاماً بعد أن شققتها الزلازل الكبرى وفوهات البراكين من كل صوب وراح البحر يغزوها بمياهه المزبدة ويسدل فوقها اكفانه الزرقاء تدريجياً.. الى ان امّحى كل أثر للحياة في أرض لم تعُد أرضاً. وقد كان يسكنها ما يقرب من ستين مليون انسان!!

و« ما قبل التاريخ » هذا يصل حتى حضارة حكماء أشور وموهنجودارو والأكاديين والكنعانيين والعبرانيين والفراعنة. وصعوداً من هاته الحضارات التاركة آثارها في الأرض والأذهان، حتى حضارات مو وغوبي والأطلنتيد وهيبربوريه. يمكن الكلام عن

حضارات مشلولة او منحطّة تماماً الى درجة انها لم تترك لها أي أثر يذكر في الأرض ولا في الأذهان (وقد تكون آثارها مغمورة تحت مياه البحار او مدفونة في شقوق قديمة اصبحت فيما بعد سهولاً او تحت التلال والجبال).

.. ذاك هو تكويننا وتسلسل أصولنا ومصادرنا وحضاراتنا.

ونحن اليوم.. مَن نحن؟

لقد قلت ببطلان رواية التكوين التي اوردتها التوراة العبرانية التي استقت منها الحضارات المسيحية والإسلامية وغيرها فكرة خلق الله (ايُّ إله؟) للانسان، وفكرة فردوس ارضي، وفكرة اخطاء الانسان ومخالفته لسنَّة الله، وفكرة السماء وجهنم والثواب والعقاب والخلود السعيد أو التعيس.. وفكرة الخطيئة الأصلية التي يؤخذ بجريرتها كل من أتى الى هذا الوجود، وفكرة الملائكة والشياطين.. الى آخر ما في هذه الأسطوانة المعروفة في كتاب التقاليد الأخلاقية والمعنوية والدينية...

أضف اليها عادات كثيرة أخرى دخلت الى صميم المعتقدات والسلوك الاجتماعي، وهي من رواسب حضارات ماتت في القديم القديم لم تعرف التوراة عنها أي شيء: كعادة التطهير التي كانت متَّبعة قبل ابراهيم بمئات الوف السنين، وعادة محاربة الثور (La Tauromachie)، وعبادة الإلٰهات، وعبادة عضوي التناسل للرجل والمرأة، وغيرها.

فالجواب إذاً يلخص في هاتين الصورتين:

١ ــ نحن اليوم، حسب ما تبيَّن، احفاد للآلهة، « بالتطعيم »

او التلقيح، ومن الصنف الثالث.. أي أن العقلانية الإلهية الخلاقة المالئة كوناً لا حدود ولا نهاية ولا امكانية ادراك له ـــ والكرة الأرضية هي غبارة دقيقة لا ترى حتى بالمجهرات على جوغرافية الكون التي لا تحدّ ولا يمكن ان يكون لها إطار ـــ لا يمكن ان تكون قد تحوّلت الى شخصية معينة تجيء الى هذه الأرض وتجبل من الطين انساناً عقلانياً، وتعده بالخلود وتأمره بعدم الإقتراب من « شجرة معرفة الخير والشرّ »، إذا اعتبرنا ان هذه المعرفة هي نوره العقلاني الوجودي الوحيد!

٢ ـــ ومثلما عملت القوة العقلانية الإلهية الكونية الخلاقة في الأكوان والمجرات العملاقة والأنظمة الشمسية والأبراج الكبرى والنجوم الكبرى والصغرى والأقمار والفراقد والنيازك والغبار الكوني والغيوم السديمية والمجالات التي تتلألأ فيها النجوم وتعيش عمراً والفراغات السوداء التي تطرح فيها النجوم عند نهايتها لكي لا يدري بها احد فيما بعد.. كذلك انها خلقت لكل طاقة كونية مجالات عمل ومستويات كبيرة وصغيرة وأصغر ودقيقة وأدق.. كذلك انها جعلت للطاقة البيولوجية درجات، وللطاقة العقلانية مستويات واجواء ومجالات للتمدّد والتصرُّف.

وانا لا استطيع ان اجزم، كما يفعل التوراتيون والايمانيون؛ بل باستطاعتي ان اعتقد، بكثير من المنطق، ان القوة العقلانية الإلهية الكونية قد تكون خلقت اصنافاً كثيرة، بدرجات مختلفة، من الكائنات العاقلة، ونشرتها في مختلف جهات الكون، لتشير كلها اليها، ولتنطق باسمها، محمّلة كلاًّ منها رسالة وجودية محلية أو كونية.

بمعنى ان الآلهة، او رواد الكون، الذين جاؤوا هذه الأرض، في عصور مختلفة، هم كائنات عقلانية على درجات سامية من

العلم والمعرفة والقدرة تعلو كثيراً عن درجات انسانيتنا المبتدئة بالحيوانية المحلية ولا تزال مجبولة ومقيدة بها.

ان الناس ينقصهم الكثير
ليكونوا على شاكلة الآلهة

لقد حاول الآلهة ان يجعلوا من البشريات التي عملوا على تحويلها، بشريات عقلانية على صورتهم ومثالهم.

فبعد تدخّل الآلهة لتحويل الحيوان الأرضي الى انسان، اصبحنا، نحن البشريون، على وجهين، نحمل طبيعتين: الأولى حيوانية ارضية؛ والأخرى إلهية كونية.

أي اننا ابناء طبيعيون لأبناء الآلهة من الإلٰهات الأمهات، ربّات الحيوانات اللواتي احتضنّ البذرة العقلانية الإلهية وانجبنها بنسبة نسائية كبرى، على شاكلتهنَّ.

أي ان ميولنا الباعثة على اسلوب تصرفنا الوجودي تفسّر قيمتنا الكونية وتحدّد مدى الآفاق التي نتطلع اليها سواء بالنسبة للأرض أو بالنسبة للكون.

ففي حقل الميول: يوجد لدى كل فرد بشري ثلاث نسَب، من أصل اربع، نحو الأمور الطبيعية والأرضية. كما يوجد لديهم نسبة واحدة، من اصل اربع، نحو ما يسمَّى بالروحانيات، والسماء والوجود الكوني.

وهذا يعني ما يلي:

في المجال الطبيعي: ـــ نستطيع القول ان جميع الناس

طبيعيون، اذا بحثنا في تصرفاتهم الشخصية والجماعية، أي اذا ما درسنا البواعث على تلك التصرفات وهي رغبة البقاء والحفاظ على البقاء وكأن هذا الكوكب هو، بالنسبة للحياة والموت، الأول والأخير، وان الحياة هي من بدايتها الى نهايتها على الأرض، دون التفكير بشيء آخر أو بمصير آخر او بمآل آخر.

في المجال الروحي: ان الميل الطبيعي محدّد بمكان وزمان من حيث كونه ينصّب على الشؤون النامية والحيوانية في الانسان. انما تبقى في الانسان ناحية لا تعترف بقيود المكان والزمان بل تتخطاها الى ما هو أبعد إذ تدمج نفسها في كونية الوجود الشاملة وغير المحدودة.. تلك هي ناحية الروح وذاك هو المجال الروحي.

ولكن ما هوا اذاً الروح؟ هو النسمة العقلانية القابلة لأن تعوم فوق الحدود المذكورة وذلك للقيام باعمال غير طبيعية، كالآتية:

ـ التدخل في صميم شأن الحياة والإيحاء له بنوع من التصرّف، تقوده على طريق خاصّ قوى عقلانية كالخيال والخاطر والتروّي والحكم على الأمور والعقل والصبر المعنوي والقبول الارادي لصعوبات الحياة والتمييز الهادف الى تنحية غير المعقول والأمل المكنون وراء المرئيات في تغيير مجرى الحياة وظروف الحياة.

ـ الحلم، سواء لتعزية النفس عن اهداف لم تُدرك او لاستشارة الوعي الباطني حول مواطن الانفراجات في غابات المعضلات والمحن الأرضية.

ـ تشجيع القوى النفسانية الراقدة وحثّها على الابداع

والاكتشاف والخلق، في شبه غيبوبة عن العالم المحسوس وفي عزلة التفكير والتأمل.

ـــ البحث عن الأسباب والمسبِّبات، عن علاقاتها ببعضها وعن اسباب وجودها وعن تداخلها في اسباب اخرى ينشأ عنها مسببات اخرى.

ـــ تحليل الأجسام والأشياء الى أدق جذورها الأساسية، الى القاعدة الأولى لأساس تركيبتها، الى جوهر النـواة التكوينية الصغرى التي تحدد اشكال الأجسام والى الجزء الأصغر من العامل الوراثي الدقيق الذي يوقع على وثيقة الانطلاق الأولى لتكوين الأنواع عند الينابيع.

ـــ الحلم بالكون قبل ان يصبح التفكير باقتحام طرقه مشروعاً يؤيده منطق الروح وتوحي به عقلانية الانسان الكونية حيث يشرع الانسان بسبر ابعاد طرق الكون بل طرق الأكوان الكبرى الشاسعة حيث الكرة الأرضية ليست سوى حبة غبار في احدى مناطقها.

ـــ تفسير سرّ الحياة المركبة من قليل من الماء وقليل من الهواء وقليل من الغبار.

محاولة فهم سرّ التكوين واسرار هذا الكون اللامتناهي حيث ان مصير الانسان منوط به وخاضع لشروطه وتقلباته.

ـــ ومحاولة معرفة من هو وكيف هو وما هو اله هذا الكون، وذلك لغرض في نفس الانسان، لا يبوح به، وهو ان يفعل الانسان مثل الله وان يصير هو ايضاً الهاً.

كل هذا، ولا شيء آخر، هو الروح.

فرغبة البقاء تفترض التمتع بخيرات الأرض و« بكل ما تملك يد الانسان »: أي الأكل والشرب والنكاح، واهمها النكاح الذي يعتبرون انه لذة الوجود في الأرض وغاية الوجود الانساني فيها..

فبخلاف الحيوانات التي لا تقيم لتلك اللذة سوى أهمية عابرة تمرّ مرة او مرتين في السنة، راح الناس، من حيث الغريزة في الأساس ومن حيث الفكر من جهة اخرى والتعلق الواعي في الأرض، يعطونها الأهمية الأولى في جميع تصرفاتهم.

بواعث الحضارات والوانها

بنات الناس وضعنَ ابناء الإلٰهة:

فالماديّة والروحانية، انطلاقاً من العنصرين الداخلين في التركيبة العقلانية الانسانية، تنازعتا الأفراد والجماعات والحضارات منذ اقدم الحضور.

فاذا رجعنا الى التوراة وتوقفنا عند رواية « تزاوج أبناء الله مع بنات الناس » انفتحت امامنا صفحات كبيرة مدفونة وراء طبقات كثيفة من النسيان كشفها لنا علم الآثار، من جهة؛ ومنطق الظاهرات النفسانية والاجتماعية والبيولوجية، من جهة اخرى.

عهد الإلٰهة الأم، أي المرأة.

ويتّضح لنا من ذلك ان بنات الناس، الأميرات الإلهيات، في عهد عُرِف بعهد حكم المرأة (Matriarcat)، هنّ اللواتي حكمن الأرض او القسم الأكبر من شعوب الأرض طوال مئات القرون — إن لم يكن اكثر من ذلك، على الأرجح.

ويتضح لنا ان ما يسمّى « ميثولوجيا » ليس سوى صفحات مشوّهة نسجت الأجيال فوقها حكايات خيالية للتسلية ــ صفحات، جاء علم الآثار ليؤيّد اصالتها بمعناها الصحيح.

كان عهد من حياة البشريات قد امّحى، وهو عهد الإلـٰهة الأم، ربّة الأرض. يوم كانت المرأة ــ بصفتها أم ووالدة الرجل، أي صانعته في الوجود ــ تتحكم بالرجال والحيوانات والأشياء.. يوم دجّنت بعض الحيوانات وروّضت الخيل وجعلت من الحصان آلة طيّعة للكثير من اغراضها.. يوم كانت تمتطي ظهور الثيران ويسير الرجال الى جانبها على الأقدام.. يوم كانت تأمر جيوشها بالغزو في الشعوب القريبة والبعيدة لتسبي كل ذكر قويّ البنية وسيم الطالع لنكاحها ونكاح رفيقاتها...

الى أن ظهر بعض العمالقة في ممالك المرأة في آسيا الصغرى وفي اوروبا الشرقية ورفعوا رؤوسهم في وجه كبيرات الآلهات الأمهات بل وقتلوا عدداً منهنّ ونكحوا اعداداً اخرى من ذوات السيطرة والمجد دون إذن منهنّ. يقال ان العملاق (نصف الإله) هيراقليس تمكّن من الملكة « هيبوليت » ونكح في ليلة واحدة، بالاضافة اليها، خمسين من اركان الحكم (رفيقاتها).. كما يقال ان العملاق « أشيل » (نصف إله) اردى الإلٰهة الأم « بنتيزيليه » واعطى الحكم في مملكتها الى الرجال.

وانتقال الحكم من عهد المرأة الى عهد الرجل، بالرغم من تدخل العمالقة الذين كان عددهم قد تضاءل في المجتمعات البشرية، لم يكن بالأمر السهل.. كما انه تُوُصِّلَ اليه بعد مرور عشرات القرون كانت المرأة تحاول دائماً المحافظة على هيمنتها هنا واسترجاع مجدها المفقود هناك.

واذا استثنينا، في التاريخ المعروف، بلقيس، ربّة مملكة سبأ (السبئيون، شعب في « البلاد العربية السعيدة »، او اليمن، وهو شعب كان موجوداً قبل أن يُعرف العرب في تلك المنطقة؛ له لغته الخاصة وابجديته ذات الأحرف الآرامية الشبيهة بالأحرف السريانية والعبرانية. وهو من الشعوب التي كانت المرأة لا تزال سيدتها المطلقة) وسميراميس، ربة بلاد الاشوريين التي كان زوجها نصف إلٰه (أي عملاق) وهي إلهة أم كاملة.. والاثنتان كانتا ربّتين متربعتين على سدة الحكم النسائي المطلق في حضارتين لم تعمّرا طويلاً... نرى ان التاريخ، في عرضه وطوله، لم تسجّله سوى الحضارات التي انشأها الرجال ومشوا فيها قدماً، حضارات طعَّمها احياناً تدخُّل المرأة وظهورها كمشاركة للرجل في حكم الشعوب.

فلا يجب ان ننسى حوريات آسيا الصغرى وما هو معروف اليوم بمنطقة البلقان، وهنّ النساء اللواتي كنَّ يسيطرن ليس بفضل تقاليد الوراثة فحسبُ بل ايضاً بفضل جمَالهنَّ السابي لعمالقة الرجال وملوكهم، هذا من جهة.. ومن جهة اخرى، نساء الهيبربوريين (Les Hyperboréens) اللواتي كنَّ يعرفن الطب ويُقمن في المنطقة الكائنة حوالي حوض ما يسمّى اليوم ببحر البلطيق.. تماماً مثل النساء الحكيمات اللواتي كنّ يكشفن الغيب والأسرار المكنونة وينطقنَ بلسان الإله « ابولون » والآلهة الأخرى، في بلاد الاغريق وفي الشرق الأدنى. ومنهنّ من يسمّينَ البيتيات (Pythies) في « ديلف » الاغريقية و« كومس » الرومانية و« كومي ديلوس » (Cume Delos) في ارض الكنعانيين، اي فينيقيا، حيث كنَّ يكتشفن اسرار الناس والطبيعة باسم آلهة الكون.

رأس الحكمة مخافة المرأة

فحكم المرأة في القديم كان معناه الخضوع للمرأة ومخافة المرأة (يقول المسيحيون اليوم: مخافة الله) وعبادة المرأة.

وعهد حكم المرأة ـــ الإلهة الأم ـــ لا تزال له، رغم مرور مئات القرون، رموز قائمة مرسومة سواء في الحجر ام في الخشب ام في المعدن، كالفرج الذي تخصص له مقامات في بلاد الهند الواسعة وفي نيبال وجزر البحار الجنوبية.. مثلها مثل المقامات المخصصة للأولياء والقديسين في العالم المسيحي. وكثيراً ما تكون المقامات المخصصة للفرج الى جانب المقامات المخصصة « للقضيب » عضو تناسل الرجل، اشارة الى الأهمية الكبرى التي كانت للاثنين معاً في اقتباس الحضارات القديمة والى الأهمية الخاصة التي كانت تعطيها المرأة للقضيب المفضال محرّك الشهوة الجنسية ومفاعلها.

فعلى وجه العموم كان حكم المرأة تقليداً وراثياً ليس له اية مثل عليا لا من جهة الروحانيات والألوهيات الكونية ولا من جهة الثقافات والفنون المعبرة عن قدرة الابداع لدى الكائنات الانسانية.

التطهير.. ومصارعة الثور

التطهير تقليد.

ان التطهير تقليد تتوغّل فكرته في اعماق عصور « ما قبل التاريخ ». فاليهود اعتقدوا ان إبراهيم، أبو الآباء في تاريخهم، قد استلهم « يهوه » قبل ان يقوم بهذه العملية وهو في سنّ السابعة والتسعين؛ فامره « يهوه » بالقيام بالعملية على شخصه.

وسؤالي هو لماذا لم يُطهَّر او يتطهَّر ابراهيم في بلاده الأصلية (شنّار، أو بلاد النهرين) قبل ان يجيء الى ارض كنعان، وبالتعيين، الى جوار الوادي المقدس المعروف بنهر الأردن؟

وإذ اقول ان التطهير تقليد اعني بذلك ان الأمر يلقَّن من أب الى ابنه أو انه يُمارس باقتداء الابن بأبيه او بمحيطه.. دون ان يفهم الناس معناه، حيث ان اسباب القضية ومعناها احداث مصفّفة على رفوف التاريخ تغطيها طبقات كثيفة من غبار النسيان وضياع الماضي الوجودي الخاضع لنواميس الطبيعة والكون.

التطهير رمز

ليس التطهير عملية صحية او دينية.. ان التطهير رمز. وبصفته رمزاً ــ وأحد الرموز التاريخية الاجتماعية الهامة ــ قد ثُبِّتت ممارسته؛ وجاءَت بعض الأديان، كالدين الموسوي والدين الإسلامي، لتجعله فريضة اساسية من صميم المعتقد الالهي الذي تدين به.. والعاطفة الدينية هي اقوى القوانين في كل مجتمع لم تكتمل عقلنته ولا يزال بعيداً عن ان يكون قد صيغ « على صورة الله ومثاله ».

ومن هذا الشرق الأدنى انطلق التقليد سواءً في العصور القديمة العائدة للتاريخ المعروف او في العصور القريبة الى الوراء، حيث حملها الدين الاسلامي في جعبة فتوحاته الى افريقيا والشرقين الأدنى والأوسط وبلاد المغول والتركمان حتى بلاد الصين. وان هذا التقليد الذي لم يكن يعرفه عرب « الجاهلية » أخذه المسلمون، في مكه ويثرب، عن شعب ابراهيم المستوطن حينئذ في تلك الربوع الى جانب القبائل العربية.

وإن سألتَ الناس عن معنى التطهير، فلا يستطيع الناس ان

يقولوا اكثر من انه تدبير صحي فضلاً عن كونه فريضة دينية. وأما عن دواعي الفرائض الدينية واسبابها وفلسفتها.. فلا تحاول ابداً أن تسأل.. فكل جواب هو من باب اللامعقول!

وحاول اليهود، عن طريق التوراة، أن يقنعوا الناس بضرورة ممارسة التطهير ــ وكان برهانهم في الماضي، كما كان برهان المسلمين، غير مقنع لأنه غير مؤسّس. كما يحاول الفريقان اليوم، امام فقدان البرهان الصحيح، أن يقولوا للناس ان القضية صحية. ولكن.. هل الشؤون الصحية يفهمها الناس اكثر ممّا تفهمها الطبيعة المصمّمة التي خلقت لعضو تناسل الذكر ذاك الحفاظ الجلدي الأمامي الذي يقيه من امور كثيرة، مثلما خلقت الجفون للحفاظ على سلامة العيون.. وغير ذلك ممّا لحظته للدفاع عن كل عضو من كل اعضاء الجسم الانساني؟

واعود فأقول ان قضية التطهير رمز، لا أقل ولا أكثر. ولنعُدْ الى تاريخ « ما قبل التاريخ »، ونلتقط رواية قديمة تدلنا على بدايتها والباعث عليها وعلى ما ترمز اليه..

من نتائج الصراع على السلطة بين المرأة والرجل

من أحد العهود القديمة التي كانت لتظلَّ نسياً منسيّة لولا اكتشافات علم الآثار وبعض التقاليد التي دلتنا على انه في نهاية عهد العمالقة، او معاصَرَةً له، في بعض مناطق الأرض، كان هناك نظام اجتماعي شبه حضاري عُرف فيما بعد بنظام حكم المرأة او الإلٰهة الأم (Matriarcat). وكان هناك، في السرّ بادىء ذي بدء، وفي العلانية بعد ذلك، صراع بين هذا النظام القائم وبين رغبة الرجل في تغييره وفي قلب المعادلات الاجتماعية.

وفي اعتقادي ان العمالقة ساعدوا البشريات « الصغيرة » على

تغيير نظام حكم الإلٰهة الأم وعلى تسلُّم الرجال ذمام ادارة مجتمعهم بغرض اعادة الاعتبار الى الرجل الإلٰه (أو سليل الآلهة) وإدخال الاصلاحات الى هذا المجتمع وإنشاء الحضارات التي من اجلها جاء الآلهة الى الأرض.

لقد تكلمتُ، فيما سبق، عن عمالقة أردَوا إلٰهات أمهات.. وتركتُ موضوع التطهير الذي هو العلامة الدموية الاجتماعية الباقية على طريق تاريخ نزع السلطة من المرأة واعطائها للرجل.

ففي الأخبار المنقولة عن تاريخ « ما قبل التاريخ » ان احدى الإلٰهات الأمهات واسمها « جيًّا » (Géa) كانت على خلاف مع زوجها العملاق « اورانوس » (Ouranos) بخصوص السلطة. وكان لها منه ولد اسمه « كرونوس » (Chronos) يتتلمذ على يد أحد اصحابها وأُمنائها الأقربين.

وحيث كان همّ « جيًّا » منحصراً في التفرّد بالسلطة وكان « اورانوس » قد ابتعد عنها وقاطعها وراح يعمل على إثارة مجتمع الرجال على سلطانها.. نَوَتْ « جِيًّا » بعد استشارة أمينها الخاصّ، ان تتخلص من زوجها ومناوئها « اورانوس ». وقررت ان توفد اليه ابنها وتعرض عليه المصالحة والتنازل عن كبريائها، مُصِرّةً على ابنها اليافع ان يستعطفه في سبيل حل الخلاف « بين الأبوين ».

ونزولاً عند اصرار الابن، الذي افترض فيه ابوه أن يكون بريئاً، قَبِل « اورانوس » دعوة « جيًّا » لملاقاتها في مكان حددته هي، وراء صخرة وعلى ضفاف نهر حيث قَد تعرَّت من ثيابها وتهيأت للمغامرة الجنسية.

وبينما كان « اورانوس » على وشك الشروع بنكاح « جِيًّا » انسَلّ ابنه اليافع من الوراء وقطع له عضو تناسله بمقصّ كانت

امّه قد سلحته به (وقيل بمنجل صغيرة)؛ وانقلب اورانوس على ظهره ودمه يسيل بغزارة الى ان ادرك سيل الدم مياه النهر، حيث تخضبت هذه المياه وحملت دقائق الدم الى البحر القريب ومنه توزعت « مزبدة ومخضّبة » على البحار البعيدة!

وكبُرَ كرونوس، ابن العملاق. وَأزوجته أمه جِيًّا من امرأة « أمازونية » مثلها.. وبدأ يشعر بسلطان المرأة عليه. ولعله شعر بان مصيره، عاجلاً ام آجلاً، سوف يكون مماثلاً لمصير والده. فقرّر — في بداية الطريق، كما يقال لا في آخرها، ان ينتزع السلطة من والدته العجوز وان يقضي على الأمازونية، زوجته.. وهذا ما حدث.

ثم ان كرونوس.. استعرض يوماً في خياله بشاعة العمل الذي قام به لما كان صغيراً يافعاً، وندم على فتكه بأبيه.. ووكل ادارة المجتمع البشري الى أمناء له.. وقرّر التكفير عن ذنبه، بل خطيئته الكبيرة، بأن أمر بتقديم القرابين عن روح والده، وحظر مجامعة النساء لمدة معينة ثم في مواسم معينة.. وجاب ارجاء مملكته المترامية الأطراف فارضاً على كل الذكور اقتطاع اللحمة الجلدية الأمامية (circoncision) من عضو التناسل لدى كل ذكر واقتطاع شيء شبيه بذلك (excision) من العضو الجنسي لدى كل انثى.. رمزاً تذكاريًّا لمقتل أبيه في تلك الناحية الجنسية الحيوية من الجسم.

ذاك هو التطهير..

وهكذا بدأ كفريضة ثبّتها العملاق كرونوس في حياته؛ واوصى بها كتقليد يُمارس لدى كل الأجيال.

والعمالقة كانوا هم الآلهة في الأزمنة العريقة.

فإذا كان التطهير وصية إله، فان ممارسة التطهير تسير مع نشوء الأجيال وترافقها الى الأجيال الطالعة عنها.

وهل وُجدَ في القديم من يجرؤ على عدم تطبيق وصايا الآلهة؟ أو هل لا يعلم اصحاب الوعي الجليّ ان حكاية الأديان والمذاهب والمعتقدات والممارسات، هي، حكاية آلهة؟. آلهة غابوا عن الوجود، وظلت اوامرهم تُطاع بل اصبحت شيئاً اساسيًّا من وجدان الانسان ومن نمط حياته اليومية في هذه الأرض — بالرغم من تفتح العقلانية لدى كل كائن عاقل ومن تمكُّنه من تطليق آثار الماضي، الماضي السحيق البعيد عنه بعد السماء عن الأرض، وتطليق ذلك بكل حرية.

ان آثار الماضي قد حُفرت بازميل الحاجات الانسانية في تكوينة الانسان التاريخية. ومهما حاول الانسان ان يقنع نفسه والآخرين بانه ابن يومه الراهن وابن عصره الحاضر، فهو دائماً وسوف يظل ابن الماضي، والماضي السحيق. والدليل على ذلك هو ذاكرته النفسانية الوراثية وتكوينته البيولوجية الوراثية ووجدانه الروحاني الوراثي.. وكل ذلك يختص بالدورة الحيوية البيولوجية التي يجب ان تنتهي يوماً مثلما انتهت دورات اخرى سابقة.

ولكل دورة اديانها ومعتقداتها وتفكيرها وحضارتها والصبغة التي تصطبغ بها في سياق هذا الوجود الانساني المجهول الأسباب والمصير.

ما معنى ذاك النهر؟ وما هو الأردن؟

ان النهر الذي جرف دماء العملاق الإله « اورانوس » كان يجب ان يظل شاهداً تذكارياً على الصراع الدموي بين الرجل والمرأة، وعلى انقلاب الصراع لصالح هذا الأخير. وقد تمثلت فعلاً

تلك العملية ـــ وإن في طريقة لم تكن مفهومة ولا ممارسة بشكل علنيّ ضاجّ ـــ في النهر المعتقد به انه شهد الحدث التاريخي وشارك سلبيًّا فيه، النهر المقدس المعروف بنهر الأردن.

وإلّا... وإلّا، لماذا وجود النبي يوحنّا (يحيى) المعمدان وماذا يعني انه ركّز اقامته على ضفاف هذا النهر، وكان في كل مرة ينزل الى النهر « ليطهّر » الناس الوافدين اليه « بالماء والروح » أي الماء الرمزي المقدس الذي كان يصبه على رؤوسهم فيهبط الماء من الرأس على باقي الجسم، وحينئذ يُعتبر الناس مطهّرين؟

.. وما معنى ان يسوع الناصري (عيسى ابن مريم) توجّه الى يوحنا ليتطهّر بمياه ذاك النهر، وعلى يد المعمدان؟.

.. وما معنى ان يكون الناصري قد ألغى ممارسة التطهير (circoncision) باقتطاع اللحمة المعروفة وقال بالاستعاضة عن تلك العملية بالتطهير بالماء الذي يصب على الرأس (وعند بعضهم يغطس الجسم كله بالماء)، رمزاً لرمز آخر؟ وهناك اليوم مسيحيون مقيمون على مسافة عشرات آلاف الكيلومترات من ذاك النهر، يستقدمون الماء منه لاستعماله في عمادة (تطهير) اطفالهم. أي ان العمادة هي بديل التطهير الدموي الذي شاء المسيح والمسيحيون ان يبنوا عادة جديدة مسيحية حضارية فوق عادته الوثنية.. تماماً كما فعلوا بأن دكوا اجمل الهياكل القديمة واروعها وشيدوا فوقها او فوق انقاضها كنائسهم وامكنة عبادتهم.

على ضفاف ذاك النهر البريء اغتيل إلٰه الرجال وحاكمهم وابوهم الأكبر.. وعلى ضفاف ذاك النهر الشاهد كانت الإلٰهة الأم (المرأة) قد كرّست سيطرتها على المجتمع، ولو الى حين..

وفي جوار ذاك النهر عادت للرجل السيطرة على المجتمع،

فراح الرجال يعاملون النساء بقساوة واحتقار ويعتبرونهنَّ سلعاً للبيع والشراء في اكثر البلدان.. وبلغ بهم الاحتقار الى درجة انهم، نزولاً حتى عهد الناصري، كانوا (اليهود المطهرون بقطع اللحمة) يرجمون المرأة، أية امرأة في حالة « الزنى » او التطلع بعطف الى الرجل.. بينما معظم الرجال كانوا إباحيين وزناة.

وفي جوار ذاك النهر الذي نزل اليه المسيح ليتطهّر، ــ على ذمّة النَدَم الانساني على خطأ كبير ارتكب هناك وبقي شيء من آثاره المعنوية التاريخية في تلك الأجواء وفي ذاك المكان ــ شاء المسيح ان يعيد الاعتبار للمرأة) بعد عقاب مئات القرون كان قد أُنزل بها، ويساويها بالرجل في وقفته الشهيرة امام قضاة الهيكل المتحفزين لرجم المجدلية (المرأة) قائلاً لهم: ايها الظالمون الأغبياء « من منكم بلا خطيئة (اي مثل خطيئتها. أي من منكم لا يزني) فليرجمها بحجر »!

أي ان المسيح، في عمله هذا، قد مَسَح الحدث ومَسَح الرمز وقوَّض سلطة الرجل، واعاد الاعتبار الى المرأة، وأسس حضارة جديدة ازدواجية (رجل / امرأة) بتشريع عهد جديد من المساواة بين الاثنين وتوزيع المسؤوليات الاجتماعية، من فروض وواجبات ومصير مشترك واحترام متبادل وحب على خطّين متقاطعين، على الاثنين.

مصارعة الثور

ان مصارعة الثور ليست بذكرى ولا تقليداً. انها رمز من رموز التاريخ الماثلة لنا دائماً والمأخوذة من صفحات الزمن البعيد الموشكة على الإمّحاء.

وماذا تعني؟ وماذا تعني عبادة الشيطان المستمرة لدى بعض الشعوب، بالرغم من انه قيل لأجداد جدودهم ان الشيطان ملاك قد هلك أو إله قد انحطّ ونزل من عليائه وتحوّل الى عنصر شرّ وفاعل شرّ؟

ان الناس كانوا، ولا يزالون في ميولهم ونظراتهم الى الأمور المتناقضة بين بعضها البعض، احراراً ليعتقدوا بما يرتأون. وبالرغم من انحطاط الإله وانزاله من عليائه، قد ظلّ الكثيرون من محبّيه والمتغلقين به وعبّاده (اذا ما استعملنا التعبير الديني) يعتقدون بألوهيته وبصلاحه وبسلطانه على الناس. ومعظم المسيحيين والمسلمين يعتبرون الشيطان « رجيماً ».

فقد ألفت الأديان والمجتمعات عادة تكريس إله وحاكم سياسي محلّ إله وحاكم سياسي آخر.. وذلك طبقاً للمصالح الآنية لبعض الفرقاء المناقضة لمصالح آنيّة اخرى لفرقاء آخرين.

وهكذا.. وبالرغم من انحطاط الإلهة الأم، أي المرأة الأمازونية، التي ظلت مئات القرون السيدة المطلقة للخلق.. وبالرغم من أن معظم الرجال تنكّروا لها واسقطوها عن عروشها التاريخية.. فقد ظلّ الكثيرون من رعاياها والمتعلقين بها وعبادها موالين لها، يعتبرون قوتهم البدنية ــ التي استعملها غيرهم ضد الإلٰهة الأم فغلبوها على أمرها ــ قوة تحت تصرف هذه الإلهة الأم أو المرأة الأمازونية، ورهينة باوامرها، وفداءً لها.

وبعد سقوط الإلٰهة المحبوبة.. وحيث أن الثور كان يعتبر في الأزمنة القديمة تلك، رمزاً لقوة الرجل البدنية، راح عشاق الإلهة الأم، وعابدوها في نفوسهم حيث ظلّت هي مسيطرة، يُحيُون خضوعهم للمرأة الأمازونية وتعلقهم بها، في المشهد الذي

يتصارع فيه الرجل مع رمز رجولته (أي مع نفسه) ليضحّي، عوضاً عن نفسه، برمزه رمز كبريائه الذي هو الثور، لدى ارتياح المرأة وعند قدميها.

ذاك هو مسرح، ديني في الأساس واجتماعي بعد ذلك، غرضه الغامض السرّي، المجهول حتى من اولئك الذين يمثلون المشهد، مواصلة الخضوع للمرأة.. حتى اليوم الذي تعود فيه الأمازونية سليلة الإلهة الأم الى الأخذ بذمام حكم المجتمعات البشرية الذي اقصيت عنه لكي يقوم الرجل بتجربته الحضارية.. حضارة فاشلة.. لأنها اقتصرت على ان تكون حضارة الحرب والجنس. تماماً مثلما كانت حضارة المرأة الأمازونية في العصور القديمة.

ولقد شهدت، كما يستطيع ان يشهد كل من يذهب الى المكان، على احدى حلبات مصارعة الثور، ان المصارع الذي يقوم بدور بطل المسرحية الرامزة، عند دخوله الى الحلبة حيث يتجمع حولها عشرات الألوف من المشاهدين، يتوجه قبل الشروع في المصارعة، نحو مقاعد المشاهدين ويرفع قبعته عن رأسه ويرميها عند قدمي احدى السيدات المشاهدات التي يحبّ، او يحترم، أو يقدّر، قائلاً لها: أقدّمُ لك هذا الثور... ولكن من يقول ان الرجل ينتصر دائماً على هذا الحيوان القوي؟ لقد حدث احياناً ان ضحية هذه المصارعة كان الرجل عينُه.. وهذا يعني انه يكون قد ضحًى بنفسه في سبيل المرأة.. وقبعته، رمز حضارته، تحت قدميها.

ميلٌ في الانسان نحو الأمور الكونية

ان الاهتمام بالفنون يعود الى ميل في الانسان العقلاني الى تقليد الآلهة في تحقيقاتهم ومعجزاتهم، بالرغم من يقيننا من أن الذي يقلّد لا يمكنه ان يكون كالمبدع الأصلي.. وهذا الميل ظاهرة تشدّ الانسان الى الشيء العقلاني الذي يعود الى الآلهة المبدعين، وهو المغروس فيه.

وفي عصرنا ـــ العصر المادي الأرضي، دون آفاق ومطامح علياء بعيدة ـــ اختلط فينا الحابل بالنابل. فمن جهة، لا يزال لدى بعض الشعوب تعلق كبير بالأمور الروحانية ولدى بعض كبار المفكرين والحكماء ذوي المُثُل العليا المستمدين وجهة تفكيرهم من الأصل الروحاني الإلهي المغروس في عقولهم. انه ميل نحو شيء مبهم اسمه السماء والوجود الكوني.. وهنا يصحّ أن نقول ان الهمّ الوجودي، لدى بعض العلماء ولدى بعض ساسة الشعوب الذين هم ايضاً أنصاف علماء، هو الذي يدفعهم على التفكير بايجاد طريقة للانخراط في طرقات الفضاء وطرقات الكون البعيدة عن ارض البشريين، بحثاً عن جذورهم في الغيوم السديمية الكونية او في المجرات البعيدة من حيث يُفترض ان يكون قد أتى زارعو العقلانية الانسانية في هذا الكوكب.

وانطلاقاً من ميول الأفراد يتّضح لنا ان شعوباً كاملة لقّنَها زعماؤها (أو زعيماتها) شعارات تعود الى معيشتهم في مجتمعات يتسابق الناس فيها على لقمة العيش، ولا يفهمون من معنى « للتطعيم » الإلهي على الحيوانات التي انتسلنا منها على مستوى الأرضيين.

ويتّضح لنا ايضاً ان افراداً وشعوباً سارت على خطاهم، تُظهر ميلاً عقلانياً (وإن كان يشوبه احياناً الكثير من الميول المادية

الأرضية) نحو السماء والوجود الكوني. وهذا يعطي الدليل على وجود النسمة الإلهية في اعماق الانسان. ان هذا الميل العقلاني يجعل آمال الانسان وافكاره تتجه احياناً نحو الوجود الكوني المجهول، أي نحو ما يعطونه صورة صغيرة مبهمة اسمها « السماء ».. ان هذا الميل قوي لدى اولئك الذين يشعرون بقوة النسمة الإلهية في حناياهم: كشعوب البراهمة، والبوذيين في الهند والتيبت وبعض المفكرين من اتباع الناصري في العالم المسيحي، وبعض الصوفيين والمتصوفين في العالم الاسلامي.

وماذا يعني هذا الميل في علم الظاهرات النفسانية التي اعتُمد عليها لتفسير حنين الانسان وتصويب تفكيره نحو اللامنظور والمجهول؟ إنه يَعني أنه لا يزال في عمق اعماق الناس وَمْضة ضئيلة من حياة مثالية على الاطلاق، وفي داخل فمه طَعْم ضعيف لعيشة غير ذات هموم، قيل لهم عنها، في فردوس أو جنّة ارضية. شعور باطني ونقل تاريخي هما عنصران يغذّيان هذا الميل ويعملان على تقويته في بعض الأحيان.

وعلم الظاهرات النفسانية يحملنا على ان نتوقّف عند ظاهرة عقلانية تُبرِز العنصر الإلهي في التركيبة الانسانية. وهذه الظاهرة هي في تصوّر جماعات من المفكرين والعلماء والأنبياء والحكماء واصحاب « الهَلْوَسَة » لعوالم اخرى غير منظورة وفي تجسيدها. وهذا يعني ان هذا الابداع لدى الانسان هو شيء إلـهي وكوني.

ــ تلك هي مفاهيم الناس..
ــ تلك هي عقائد الناس وأديانهم..
ــ ذاك هو ايمان الناس..
ــ وتلك هي شكوك الناس واختلاف تفكيرهم، والطرائق التي ينتهجونها للعيش في هذه الأرض.

وفي صدد الشكوك واختلاف التفكير والطرائق المتناقضة، يصحّ ان تطبّق على مجموعة الناس الذين يحتويهم هذا الإطار، الآية القرآنية الحكيمة « كلٌّ يعمل على شاكلته.. والله أدرى بمن هو اهدى اليه سبيلاً ».

محاولة تفسير استنتاجيّ للحضارات

« التطعيم » الإلهي لم ينتهِ مفعوله بمرور القرون، بل ظلّ يتفاعل ويُنتج البراعم: منها ما هو قويّ، في المتصوفين، والانسانيين، والعلماء، وطالبي المثل العليا، والخياليين، وبعض الشعراء، ومعاندي قوى الطبيعة.. للسيطرة على قوانينها ولحلّ رموزها؛ ومنها ما هو ضعيف، لدى الايمانيين والاتكاليين؛ ومنها ما هو أضعف، لدى المجموعات البشرية التي تصلّي ولا تعرف لا ما تريد ولا ما تعني؛ ومنها ما هو أثر بعد عين، لدى البشريات التي لا تطمح ولا تبدع ولا تشعر ولا تصلي.. لا تطلب سوى الأكل والشرب والنكاح، ولا شيء آخر.. لا ايمان ولا مطلب آخر في هذا الوجود.

وهذه الحالات الفكرية النفسانية الأربع تفسّر الحضارات التي تعاقبت بعد « عصر المجد » الذي تولّاه الآلهة وتسلمه العمالقة بعدهم، وراح الناس، بعد هؤلاء الآخرين، يتخبطون في ميادين حضارات تنتقل، بالتتابع احياناً، بين حكم الرجل (أب الآباء Patriarche) وحكم المرأة والإلٰهة الأم (Amazone Matriarcale).

وبينما لا يزال في بعض المناطق (في الولايات المتحدة الأميركية) شعب من الهنود الحمر في ولاية ميشيغن؛ (وفي افريقيا الغربية) شعب « الباول » (Peuls أو Foulbès)، افريقيون رُحَّل

ومحضرين يتجولون او يقيمون بين مالي والسنغال، الأولون، تحكمهم المرأة؛ والآخرون يعتبرونها أمًّا مطلقة السلطة تماماً كما هي الطبيعة، لأنها ترمز اليها..

وبينما لا يزال ايضاً في بعض انحاء الهند وفي بعض جزر البحار الجنوبية شعوب تحكمها المرأة بسيطرة تامة.. نرى ان الحضارات العالمية الكبرى الحالية تعمل جاهدة على اعادة الاعتبار كاملاً للمرأة، بل انها تأنس لحكم المرأة.

ان النساء، في هذه الحضارات، تعود تدريجياً الى واجهة الأحداث والأنظمة السياسية، مثلها مثل الرجل، وعلى قدم المساواة.

واذا كانت الشعوب القديمة العائشة من الصيد وتربية المواشي واقتطاف الثمار، كالكنعانيين الأوائل والعبرانيين الأوائل والصينيين واليابانيين في ما قبل نشوء الحضارات.. قد ثارت على حكم الإلهة الأم وحطمت رموزها واعتبرها بعضهم آلـةً للتخصيب ومعملاً لإنجاب الأطفال والبعض الآخر سلعةً تُباع وتشترى.. فقد جاء شوعه الناصري (يسوع) وقال لكبار هذا العالم « المتحضر » ان الرجال ليسوا أشرف من النساء ولا اكثر قدراً.

وازاء الإله الذي كان يرمز به الى سلطان الرجل، جعل المسيحيون من المرأة أمًّا لله!!!

هل ستنتهي حضارة الرجل.. ومتى؟

فبعد غياب الآلهة واستحالة رجوعهم (حتى الآن؟) الى هذا الكوكب، اللهمّ إلاّ بعد مرور قرون طويلة، استطيع القول ان

بشرياتنا سوف تظل خاضعة لتجاذب وتناوب بين حكم أب الآباء (الرجل) والطبيعة الأم (المرأة). وانطلاقاً من مبدأ الدورات البيولوجية والنفسانية التي تكيّف ادوارنا وتتحكم بمصيرنا، فان حكم الرجل الإله سوف لن يطول وسياق بعده حكم الإلٰهة الأم أي المرأة. وهناك كثير من الظاهرات النفسانية والاجتماعية التي تدلّ بوضوح على حصول ذلك. من هذه الظاهرات خضوع الرجل في كثير من الحضارات لأمنيات المرأة واهوائها، وعبادة الفرج المتجددة في هذه الحضارات.. كما لو كان الفرج ليس اداة الحفاظ على النوع الانساني ونبعه الوحيد فحسبُ بل ايضاً وسيلة الارتياح الى الوجود عن طريق اللذة الكبرى الجسمية التي يقدمها الفرج للرجل. ان الكثيرين من الرجال يضحّون بكل ما لديهم، واحياناً بحياتهم عينها، في سبيل اللذة مع المرأة.

والحضارات الراهنة، شاءَت أم أبت، دَرَت بذلك أم لم تدرِ، تنخرط في هذا الطريق مسوقة بدافع فيزيولوجي ونفساني وطبيعي وتاريخي، في غياب الآلهة التي على شاكلتها جُعل الرجل.. فالآلهة غائبة ورموزها ضعيفة وتعليمها أصبح ظلاً لما كان عليه، لا عيناً ساهرة، مرشدة، منذرة ومعاقبة. اما المرأة، ربة الغابات، فهي حاضرة ابداً بكل تأثيرها وجاذبيتها وسحرها وانوثتها الوجودية وجسمها الايجابي.

وكما في الطبيعة.. كذلك في ما هو من الطبيعة وما عليها! ففي العالم الفيزيائي والحيواني — ولمئات قرون خلت — إن أجواء كثيرة قد تغيّرت أو تبدّلت.. وإن انواعاً كثيرة من النبات والحيوان اعتراها العجز وبلغت نهاية دورتها البيولوجية وانسحبت نهائياً عن مسرح الوجود. فحيوانات الديبلودوكوس والدينوصور والايغوانودون والبرونتوصور والإختيوصور والماموت وعشرات

الأنواع الأخرى من الحيوانات العملاقة ادركتها أجواء متغيرة ومختلفة عن الأجواء التي عاشت فيها آلاف القرون، فقلبت عليها طعم الغذاء وأهلكتها، لأن تلك الأجواء الجديدة جاءت بنباتات جديدة تختلف عن السابقة في جوهرها الغذائي.. كما جاءَت بالصقيع حيث كان الحرّ القاسي سابقاً وبالحرّ القاسي حيث كان الجليد في ما مضى.

ونحن البشر

بعد اندثار عهد الآلهة المبدعين، البستانيين في الكون.. وبعد غياب العمالقة الصالحين المحضّرين.. وبعد موت الحكماء الملقنين للناس العلم والعدل والانسانية والحكمة، اسوةً بمعلميهم الغائبين.. تعيش مجتمعاتنا كما يتيسّر لها أن تعيش.

ان تغيير المناخات قد أثر على الناس كيفيًّا ونوعيًّا. لقد مات ابناء الذين صُنعوا على صورة الله ومثاله.. ولقد رجع قسمٌ من الناس، وهو القسم الأكبر، الى مستوى الغريزة الحيوانية؛ واضمحلّ من وجدانهم قسمٌ أكبر من ثقافة الحكماء وتعاليمهم؛ وانسلخت عن جسمهم مسحة الانسانية العقلانية؛ وغابت عن ضميرهم صورة المخلوق الذي « ميّزهُ » الله عن سائر الأنواع الأرضية ليلعب دوراً إلهيًّا في الأرض والكون.

ولعلّ في كل ذلك سلسلة الأسباب التي يقتضيها الوجود ليُحلَّ دورة وجودية جديدة محلَّ دورة وجودية يجب ان تصل الى نهايتها طبقاً لناموس التغيُّر الدائم العامل عمله كما في الطبيعة وتقلباتها كذلك في العالم العقلاني الذي تحتضن، وفي الشمس والكواكب والمجرّات والكون.

الكوكب المريض

ان كوكبنا اليوم مريض.. ومرضه سببه الانسان.

فبصرف النظر عن الكوارث اليومية التي اعتاد عليها الناس: كالزلازل وثورة البراكين والفيضان والجدب والقحط والأعاصير المدمرة والتعاقب المعهود بين الحرّ والبرد، وجميعها امور طبيعية لا تعطي المفكرين صورة مرضية عن جودة الأرض وصلاحها.. هناك الفساد الذين بدأ يدبّ ويتفاقم في جوّ الأرض وفي تربتها وفي بحارها.. وفي نفوس الناس وضمير المجتمعات وفي صميم ما نسميه بتبجُّح : « الحضارات ».

ان مكتشفات ما نسميه « العلم » ملأت جوّ الأرض بدقائق مؤذية لتنفس النبات والحيوان والانسان معاً. وإن تربة الأرض التي اراد الانسان تسريع تخصيبها وإكثار إنتاجها بطريقة غير طبيعية ــ سُمّيت علميّة ــ تردّ على عبث الانسان بان تعطيه، مع التخصيب وإكثار الانتاج، بُؤَراً هائلة تحتضن جيوشاً جرارة من الحشرات، والجراثيم والآفات الأخرى، فتُخِلّ هذه بميزان القوى الطبيعي وميزان تعادل الأنواع، وميزان التفاعل الطبيعي وميزان انقراض انواع لصالح انواع وأجناس أصلح.. فتأكل هذه الحشرات والآفات ما هو مخصّص لغذاء الناس، وتقتل الناس فوق ذلك.

وان تكاثر النظريات الاجتماعية المتضاربة قد راح يرفض كل منطق غير منطق الهَوَس والمصلحة الفردية الآنية والحرية الفردية المطلقة، والرافضة للمسؤوليات الوجدانية والأخلاقية (الأخلاق اصبحت اليوم موضوعاً للهزء والسخرية) والتاريخية لدى الأفراد. ولقد راح هؤلاء بعملهم هذا يفسدون المجتمعات ويعطونها منحًى

يشبه منحى انسان الغاب في العصور الممحوَّة من الأذهان.

ان « نزول » الرجل الى مستوى المرأة و« صعود » المرأة حتى مستوى الرجل قد خلط الحابل بالنابل، وخلق فوضى اخلاقية ومعنوية هي لبعضٍ من مصلحة الرجل الآنية، ولكلّ مصلحة المرأة على المدى البعيد..

ذلك ان كوارث الطبيعة المتتابعة، من جهة؛ والحروب المتقطعة في مناطق وغير المتقطعة في مناطق اخرى، من جهة ثانية.. أدخلت الى تفكير الناس، الذين ينعمون بحرّيّة التفكير والتصرُّف، عنصراً معنوياً بدَّل العنصر الديني في التسليم لله والايمان بالله وبارادة الله ومشيئته، وبالخلود وما سوف يحمله بعد هذه الحياة الأرضية.

لقد اصبح الناس لا يقيمون أي وزن لمعتقدات الأجداد وجدود الأجداد. ولقد دخل الى تفكيرهم عنصر نفساني ارضي يدفع الناس على التفكير بحياتهم الحاضرة.. ولقد اصبح الناس يعطون اهمية فريدة ووحيدة الى هذه الحياة الأرضية ويقيسونها بالأيام بل بالساعات التى يعيشون.. أي أن كل يوم من ايامهم بل كل ساعة من عمرهم لها اهميتها الواقعية فيخصّصون لها كل طموحاتهم واحلامهم واهتمامهم.

وهناك لذة في الحياة طالما كانت مكبوتة لدى معظم الناس، او مرتهنة « بالايمان بالله واليوم الآخِر » وبملكوت الله وجنّاته في عالم غير منظور، هو عالم الخلود.. ان هذه اللذة البدنية قد تحررت. وها هم الناس يعيرونها اليوم كل همومهم في الحياة.

حضارة اللذة الجنسية.. آخِر الحضارات

ان هذه اللذة قوامها المرأة.

والمرأة كالرجل، ذات شخصية وفكر وذهن. زد على ذلك ان ذاكرتها الوراثية والتاريخية اقوى من ذاكرة الرجل، لأنها صانعة الرجل. فعوضاً عن ان يعتبروها مِتعة، اصبحت تعتبر نفسها مُمتِعة أي لها الخيار في ان تُنكح نفسها للرجل بكل حرية أي في أن تمنحه تلك اللذة التي اصبحت هدف أهداف الرجل في المجتمع.

وبسبب فقدان المثاليات الروحانية والأخلاقية التي كانت اهم العوامل الضاغطة على المرأة من أجل خضوعها للرجل وقبولها بالعبودية له، ومن تلك المثاليات السماء والجنة والخلود وجهنّم.. عادت المرأة الى حلبة الصراع التاريخي المتجدد على السلطة في المجتمعات البشرية.

وحيث ان المرأة التي كانت معيشتها مرتهنة على سعي الرجل وسواعد الرجل أو حماية الرجل، اصبحت معيشتها، في أكبر الحضارات، وقفاً على سعيها وذكائها ومقايضتها بلذتها وحريتها في التصرُّف.. فان المرأة تساوت اليوم بالرجل على جميع الأصعدة؛ بل هي تفوقه دائماً على صعيد الإنجاب وهو صعيد قرار وجود الانسان المتواصل على هذه الأرض.. أي أنه، في قضية الانجاب الهامة هذه، اصبح للمرأة القرار النهائي بالقبول وعدم القبول. وممّا يزيد في تسويد صورة حكم الرجل ومستقبل الوجود الانساني، هو ان شباب الحضارات الراهنة الذين هم رجال المستقبل وصانعوه قد طغى على تفكيرهم تفكير المرأة وانانيتها المستمدة من روحية الإلٰهة الأم، فراحوا يطاوعون المرأة في هذا القرار الخطير.

أجل! لقد حطّم الرجل، بيديه الجاهلتين، أو المسحورتين، رمز قوته وسلطانه ورمز هدف اهداف الحضارات السابقة يوم قال: « ان الله قد مات ».

ونزولاً من هذا الهَدَف المتلَف لقد أبطل الرجل معظم النواميس و« التعاليم » السماوية ومجموعة القوانين الأخلاقية وكل ما كان يسمّى في الماضي « وجدان » و« اخلاق » و« إيمان » بالله وايمان بالنفس بصفتها نسمة من الألوهية في الأرض.

اما المرأة فلم تحطّم شيئاً ولم يتغيّر في عقيدتها وتصرفها شيء. فهي تعتبر نفسها الطريق والأسطورة والرمز والهدف. إن هذا، وإن لم تصرّح به، هو في صميم وعيها الباطن ويطفو احياناً في بعض تصرفاتها.

ففي هذا الصراع الصامت الساري تحت البنية الاجتماعية وفي صميمها والمماشي دورة الحياة البيولوجية والتاريخية الجديدة.. يصعب عليّ ان اتصوّر الغلبة للرجل لأنني ادرك مقدار الاهتراء الذي يعتري حضارات « أب الآباء » الراهنة (Civilisation Patriarcale).

إن التاريخ يأبى إلّا أن تهترىء الحضارات الراهنة، وذلك مثلما حلّ في سالفاتها. وإن هذا الاهتراء الآيِل الى زوال الحضارات يجب ان يتمّ على يد رجالها.

إلّا ان حضارة المرأة ــ الإلٰهة الأم ــ لن يتمّ إلّا على الانقاض المبعثرة لحضارة الرجل وعلى غبار هذه الحضارة المتناثر في جوّ أصبح هو عينه موبوءاً ومهترئاً..

وسوف لن يطول بنا الأمر حتى نصبح يوماً، في غَلَس أحد الأيام، فنرى صغار الناس في كبريات الحضارات يجرّون الكبار الى ميدان التغيُّرات التاريخية الكبرى.

فهرس

هذا الكتاب

يقارب هذا الكتاب، بأسلوب فلسفي، تاريخ الحضارات البشرية انطلاقاً من زاوية محدّدة هي مسألة التطوّر. حيث ان تساؤل المؤلف يبدأ هنا: هل تطوّر الانسان فعليا أم انه لم يتطوّر؟

يستعرض المؤلف أهم النظريات التي وردت في هذا الصدد وفي رأسها نظرية التوراة القائلة بخلق الانسان من طين الارض. ثم يعرّج على النظريات الحديثة، ومنها نظرية داروين الشهيرة، فيخلص الى نتيجة مفادها تقصير النظريات كافة في فهم القفزة النوعيّة التي تميّز وجود الانسان عن وجود سواه من الكائنات الأرضية، وأخصّها « ابناء عمّه » القردة.

في نظر المؤلف ان الكائن الانساني خُلق ثانية في الأرض، أي أعيد تركيبه وأعطي منحاه العقلاني المعروف.